بسم الله الرحمن الرحيم

المعمر من الإنسان والحيوان والطير
فى رسالة التربيع والتدوير
للجاحظ
محاولة لاستعادة تراث الجاحظ الضائع

الدكتورة

زينب عبد العزيز الحمرد

أستاذ الأدب العربى المساعد بجامعة الزقازيق

آداب بنها

مقـــدمة

موضوع هذا البحث هو المعمر من الانسان والحيوان والطير فى رسالة « التربيع والتدوير » للجاحظ ، ويهدف البحث إلى استعادة تراث الجاحظ المفقود اعترافا بفضله وخدمة للمكتبة العربية التى ما تزال تحلم بتحقيق هذا العمل الضخم ، أما منهج الدراسة فهو تحقيق بعض المسائل المتعلقة بالمعمر من الإنسان والحيوان والطير وسوف يراعى فى هذه الاختيارات ألا تكون من المعروف المشهور ، أو المتفق عليه كالأعلام التاريخية والدينية والعقائدية ممن لم تشكل الأساطير والاسرائيليات سيرهم ، أى أن المنهج يستهدف تقديم بعض الجوانب الفكرية عند الجاحظ من خلال الموسوعة الثقافية الكبرى « التربيع والتدوير » ومحاولة تفسير رموز هذه الأساطير التى ارتبطت بهذا الموضوع .

وهذه المسائل ليست مجموعة ولا منظمة داخل الرسالة فى باب واحد ولكنها متناثرة كما هو معروف عن الجاحظ من حب للاستطراد .

وموضوع البحث لم يتناوله أحد من قبل فقد بقيت رسالة التربيع والتدوير ـ ومنذ كتابتها ـ فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى وحتى يومنا هذا بدون أن تحقق مسائلها التى تزيد عن المئة على الرغم من ذكر الجاحظ فى أول الرسالة أنها مئة مسألة .(١)

فهذه الرسالة الصغيرة المركزة لو حققت مسائلها لوجدنا أنفسنا أمام موسوعة ثقافية كبرى ، فهو يتعرض لعلم الحياة والآثار القديمة والتاريخ ، والأقاليم والسكان ، والطبيعة والفلك ، والأسطورة والخرافة ، والعقائد والفلسفة ، ومسائل علم الكلام والأديان والأنبياء ، والكيمياء ، والموسيقى والرياضيات ، والفكاهة والسخرية ، وغيرها كثير من المعارف والثقافات العديدة التى ألم بها الجاحظ .

والجاحظ يصرح فى الصفحات الأخيرة من الرسالة بأن إجابة هذه المسائل والقضايا مكتوبة فى كتبه الكثيرة ، يقول موجها حديثه لأحمد بن عبد الوهاب الذى وجهت الرسالة إليه « فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها ، وما فيها من خرافة وما فيها من محال ، وما فيها من صحيح وما فيها من فاسد ، فألزم نفسك قراءة كتبى ولزوم بابى »[2]

وهذا البحث جزء من عمل شاق كاد أن يتم يستهدف تحقيق مسائل الرسالة جميعها .

أما تحقيق نص الرسالة فقد قام به جماعة من العلماء ، فقد نشرها فان فلوتن فى ليدن ١٩٠٣ ، ثم الساسى نشرها فى مجموعة رسائل الجاحظ ١٩٠٧ ، ثم السندوبى فى رسائل الجاحظ ١٩٣٣ [3] ، ثم نشرها شارل بلا ١٩٥٥ ، ثم حققها عبد السلام هارون ١٩٧٩ [4] كما حققها وقدم لها فوزى عطوى ١٩٦٩ [5].

وكان الجاحظ كتب هذه الرسالة لأحمد بن عبد الوهاب أحد كتاب الدواوين [6] وكان يكتب الشعر بجانب عمله فى الديوان ، وكان على علم ودراية ببعض الثقافات الأجنبية كما اتضح من إجابته التى وردت فى الهوامل والشوامل للتوحيدى رداً على الجاحظ ، ومنها على سبيل المثال : قال أحمد بن عبد الوهاب فى جواب أبى عثمان الجاحظ عن التربيع والتدوير « لا يقدر أحد أن يكذب كذبا لا صدق فيه من جهة من الجهات وهو يقدر أن يصدق صدقا لا كذب فيه من جهة من الجهات »[7]

وكما وجه الجاحظ الأسئلة لابن عبد الوهاب نرى الأخير يسأله أيضا عن مسائل عويصة ، فيقول له : « لم صار الحيوان يتولد فى النبات ولا يتولد النبات فى الحيوان »[8]

ولم يذكر أحد غير أبي حيان أن ابن عبد الوهاب قد أجاب الجاحظ عن التربيع والتدوير ، أما أسباب كتابة هذه الرسالة فهي متعددة ، منها ما هو واضح ، ومنها ما هو خفي مستنبط من الأحداث التي جمعت بين الجاحظ وأحمد ، وكان ابن الزيات وزير الواثق في ذلك الوقت طرفا ثالثا ، تربطه بالجاحظ علاقة صداقة عكرتها بعض التشوائب ، وتربطه بابن عبد الوهاب علاقة زمالة ، فهما من كتاب الدواوين قبل أن يرقى ابن الزيات إلى الوزارة، مما أحفظ صدر ابن عبد الوهاب عليه ، فأخذ يزهو بنفسه ، ويفخر بعلمه ـ كان ذلك قبل رحيله من العراق لملازمة ابن الخياط بمكة ـ حتى تطاول عليه وعلى الجاحظ نفسه ، فأخذ يبث الرسائل في مكة بين الناس والندمان المخالفين له ، يدعي فيها غزارة العلم والمعرفة بالفلسفة ، فأراد الجاحظ أن يتقرب إلى ابن الزيات ، وأن يزيل هذه الجفوة التي وقعت بينهما بإنشاء هذه الرسالة في هجاء أحمد بن الوهاب وتصويره في صورة الجاهل الذي لا يعرف جد الأمر من هزله وصحيحه من فاسده ، ولقد طار أمر هذه الرسالة لا في المشرق فحسب ولكنها وصلت إلى الأندلس .(٩)

ومن الأسباب الواضحة المباشرة التي أدت إلى إنشاء هذه الرسالة ما رواه الأصفهاني عن قلم الصالحية جارية صالح بن عبد الوهاب أخي أحمد بن عبد الوهاب (١٠) ، وكانت مغنية تجيد صنعة الغناء ، وتغني في شعر يكتبه أحمد بن عبد الوهاب ، وسمعها الخليفة الواثق وأعجب بها ، فاشتراها من مولاها ، ودفع فيها ، عشرة آلاف دينار ، وأمر الواثق وزيره ابن الزيات أن يدفع لصالح هذا المبلغ ، ولكنه ماطله إلى أن أجبر بعد ذلك على تنفيذ أمر الخليفة، فكان ذلك سببا مباشرا للخصومة التي نشبت بينه ـ أي ـ ابن الزيات ـ وبين أحمد بن عبد الوهاب .

وعلى الرغم من أن الخصومة كان يجب أن تكون بين صالح أخي أحمد وبين ابن الزيات فإنه كان من الأليق بالوزير أن تكون خصومته مع أحمد بن عبد الوهاب لأنه كاتب مثله فهو من هذه الناحية كفء للخصومة .

المعمر من الإنسان

يهدف الجاحظ من وراء طرحه هذه الأمثلة إلى أمرين : الأول أن يدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه ، والثانى أنه يريد أن يمزج الجد بالهزل . وبخاصة أننا نجد بالرسالة بعض الفقرات التى تكاد تكون منقولة حرفيا من رسالته فى الجد والهزل ، وكما أشرت فى المقدمة فإن البحث يتقى من هذا الكم الكبير تلك الأسماء التى حظيت بطائفة من الأخبار التى تصح أحيانا، وأحيانا تخرج إلى حيز الأسطورة وأحيانا إلى الخيال الهازل ، والذى يمكن الجاحظ من العبث بخصمه ، والنيل منه ، فهذه الحكايات الأسطورية التى رويت عن رجال كوهب بن منبه وعبيد بن شرية تشير إلى دراية واسعة بعالم الأسطورة والخرافة . ومازال الدراسات الأنثروبولوجية تحاول دراسة الموروث الأنثروبولوجى للجاهليين ، وبخاصة أن التراث العربى الغزير يسمح بدراسات موسعة حول هذا الموضوع متمثلا فى كتب الجاحظ نفسه ، ودواوين الشعر، وكتب الأخباريين والمفسرين، حيث نلتقى فى هذه الكتب مع البطل الأسطورى والساحر والمارد، وأسجاع الكهان ، ولقمان [١٢]، وعوج بن عنق والاسكندر ، وذى القرنين ، والخضر عليه السلام ، ونمرود الخاطىء، وغيرهم من الشخصيات التى حامت حولها الأساطير ، وأحاطتها الخرافة .

يقول الجاحظ : « فقل فى شيث بن آدم »[١٣]

وشيث من المعمرين ، وقد اختلف فى عمره ، فقال بعضهم عمر سبعمائة واثنتى عشرة سنة ، وقيل : تسعمائة وثلاثين سنة ، وقيل : تسعمائة واثنتى عشرة سنة ، وذكر الماردى فى أعلام النبوة [١٤] اختلاف أهل الكتاب فى نبوة شيث بن آدم ، حيث ادعاها بعضهم ، وانكرها آخرون ، وقيل إنه ولد بعد مضى مئة وعشرين أو وثلاثين عاما من عمر آدم ، وأن الله أراد أن يعوض آدم عن فقد ولده هابيل به ، وكان ذلك بعد قتل هابيل

بخمس سنين ، وأن الله أوحى إليه بأنه سيرزقه بولد يكون صديقا نبيا ، وسيكون من نسله الأنبياء إلى يوم القيامة، كما أوحى إليه باسمه أيضا [١٥].

وفى رواية للمسعودى يقول إن الله أوحى إلى آدم قوله: « إنى مخرج منك نورى الذى به السلوك فى القنوات الطاهرة ، والأرومات الشريفة وأباهى به الأنوار... وأجعل آله خيار الأئمة الخلفاء ، وأختم الزمان بمدتهم، وأغطى الأرض بدعوتهم ، وأنشرها بشيعتهم ، فشمر وتطهر ، وقدس وسبح، وأغش زوجتك على طهارة منها ، فإن وديعتى تنتقل منكما إلى الولد الكائن منكما »[١٦]

وذكر فى التوراة أنه ولد فردا ليس معه توأم ، وقال جبرائيل لأمه حين ولدته : هذا هبة الله بدل هابيل ، وهو بالعربية شث ، وبالسريانية شاث ، وبالعبرانية شيث ، كما ذكر أنه ولد مختونا .

وتستمر كتب التاريخ والتفسير والأدب تنقل شروحها عن الشروح التوراتية التى تحفل بالأساطير ، مثل ما نقل صاحب بدائع الزهور قولهم : إن آدم أوصى شيثا بوصايا عديدة ، ثم أحضر له سمطا من حرير أبيض نقش فيه صور الأنبياء ، ومن يملك الدنيا إلى يوم القيامة ، وكان هذا السمط نزل على آدم من الجنة ، وبعد عرضه على شيث وضعه فى تابوت ومعه شعرات من لحيته وطلب من شيث أن يحمل التابوت بما فيه لأن هذه الشعرات من لحية آدم ستكون عونا له للظفر بأعدائه ، وسيكون تغير لونها إلى البياض إيذانا بموت شيث . وهنا يعبر الإنسان عن فلسفته إزاء فكرة الموت التى أفزعته من قديم الأزل ، ووجد الخيال الشعبى عند الإنسان العربى من قصص الأنبياء ما يسرى عنه ، ويعينه على تقبل فكرة الموت التى فزع منها الأنبياء أيضا ، فآدم هو أول إنسان واجه هذه المشكلة ، فقد سأل ربه « ما الموت ؟ فأجابه . إنه يا آدم أشد مرارة من السم القاتل ، وأنه يذهب

النضارة من الوجه ، والكلام مع الحسن والجمال حتى يعود الجسم كما كان فيعود إلى بطن الأرض ، فتأكل الأرض الشحم واللحم والدم والعظم ، وكل الأجزاء منه حتى يعود طينا كما كان » ، ثم يعد الله آدم أن يبعثه هو وذريته للحساب ، وتقدير الأعمال .

وعلى الرغم من أن الحكاية الشعبية قد وصفت صورة الموت ـ بعد ذلك ـ بشكل لا يوحى بالفزع ، فإن آدم قد خر مغشيا عليه عندما رأى صورة الموت الذى سيقبض روحه فى ساعة فى يوم جمعة [١٧] .

كما أن الرواية الشعبية المصاحبة لموت موسى عليه السلام تصور هذا الفزع الشديد من الموت ، وتصور تعلق النبى بالحياة حتى إنه ليجادل ملك الموت عندما جاء يقبض روحه ، فكما يروى الثعلبى فإن ملك الموت طلب من موسى أن يقبض روحه ، فقال له : من أين ؟ قال : من فمك ، قال : كلمت به ربى ، قال : فمن يديك : قال : قد أخذت بهما الألواح ، قال : فمن أذنيك ، قال : قد سمعت بها الخطب من ربى ، فقال : فمن رجليك، قال : قد وقفت بها على جبل طور سيناء لمناجاة ربى ، فقال ملك الموت : يا موسى إنى أراك تكلمنى كلام من شرب للسكر ، فعند ذلك اختلط عقله وقال : ما شربت خمرا قط ، فدنا ملك الموت منه ، فلطمه موسى على عينه ففقأها ، ويقال فى ذلك كان ملك الموت يأتى عيانا ، فلما فقأ موسى عينه أصبح لا يجىء إلا مستتراً [١٨] .

وهكذا تتجلى فلسفة الإنسان الشعبى فى الموت فى هذه المفارقات وبخاصة « التى عبر عنها على لسان آدم بقوله : فالعجب يا إلهى ممن يتنفع بعيشه ووراءه الموت ، فالإنسان ما يلبث أن يعزف عن الحياة ، وتكل قواه عن السعى عندما يشعر بقدوم الهرم عليه الذى يعد نذيرا بالموت » ولهذا فقد قال آدم لابنه شيث : إنك لا تزال مظفرا على أعدائك ما دامت هذه الشعرة سوداء ، فإذا ابيضت فإنك مائت [١٩] .

ولم تكن الشعرات هى كل ما تسلمه شيث من أبيه ، بل أخذ خاتمه والصحف التى أنزلت عليه . كما ينسبون إلى شيث أنه أول من نطق بالحكمة وأول من أخرج المعاملة بالذهب والفضة . وأول من أظهر البيع والشراء واتخذ الموازين والكيل ، وهو أول من استخرج المعادن من الأرض ، كما أشاروا إلى إقامته بمكة يحج ويعتمر ، ويعمل بما جاء فى الصحف التى نزلت على آدم ، وأنه بنى الكعبة بالحجارة والطين (٢٠).

وما نزال مع الجاحظ يسخر من ابن عبد الوهاب فيسأله عن عوج بن عنق أو ابن عناق فى بعض الكتب قائلا له : « ومذكم مات عوج » (٢١).

وحديث عوج بن عنق حديث طويل وطريف ويدل على غلبة الأساطير فى كتب التفاسير والتاريخ وعجائب المخلوقات ، فقد روى عن ابن منبه فى عوج أنه كان من أحسن الناس وأجملهم ، وكان لا يوصف طوله وعظمه ، وعمره الله تعالى عمرا طويلا حتى أدرك زمان موسى عليه السلام ، وكان أردك زمن نوح عليه السلام (٢٢).

وقال إن الله أوحى إلى نوح أن الذى يحمل له الخشب الذى سيصنع منه السفينة من الكوفة إلى أرض الحيرة هو عوج ، والحيرة قرية قريبة من بغداد ، فطلب نوح من عوج أن يحمل له الخشب ، فقال ، عوج : لا أحمل ذلك لك حتى تشبعنى من الخبز ، وكان مع نوح ثلاثة أرغفة من خبز الشعير ، فقدم إلى عوج قرصاً منها ، فضحك عوج وقال : لو أن مثل هذا الجبل خبزاً ما أشبعنى فكسر له نوح ذلك القرص وقال له : قل بسم الله الرحمن الرحيم وكل ، فأكل قرصا ونصف وشبع ، ثم حمل الخشب من الكوفة إلى الحيرة فى نقلة واحدة (٢٣).

وعن ابن عمر قال : كان طول عوج ثلاثة وعشرين ألف وثلثمائة وثلاثون ذراعا ، وكان عوج يحتجز السحاب ويشرب منه الماء ، ويتناول

الحوت من قرار البحر فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها ثم يأكله ، ويروى أنه أتى نوحا فى أيام الطوفان فطلب منه أن يحمله معه فى السفينة ولكنه رفض طلبه قائلا : اذهب يا عدو الله فلم أومر بحملك ذلك أن عوجا كان ظالما فاجرا ، وكان يسخر من نوح عليه السلام قائلا له : ما هذه القصعة التى لك ؟

وعندما جاء الطوفان طبق الماء الأرض من سهل ومن جبل وما جاوز ركبتيه .

أما عن عمره فقيل عاش ثلاثة آلاف سنة حتى أهلك على يد موسى عليه السلام . وأما كيف هلك فيروون أن موسى كان له عسكر فرسخ فى فرسخ ، فجاء عوج ونظر إليه ، ثم جاء إلى الجبل وقور منه صخرة على قدر العسكر ، ثم حملها ليطبقها عليهم ، فبعث الله الهدهد ومعه الطير فجعلت تنقر بمناقيرها حتى قورت الصخرة وانثقبت فوقعت فى عنق عوج فطوقته وصرعته فأقبل موسى وكان طوله عشرة أذرع وطول عصاه عشرة أذرع أيضا ، وقفز فى الهواء عشرة أذرع فما بلغ منه إلا عرقوبه ، وهو مصروع فى الأرض فقتله ، قالوا فأقبلت جماعة كثيرة ومعهم الخناجر فجهدوا حتى جزوا رأسه ، فلما قتل وقع على نيل مصر فحسره سنة [٢٤] .

أما أمه فإن الحديث عنها أغرب ، قالوا إنها إحدى بنات آدم من صلبه، وأنها أول من بغى على وجه الأرض وكانت مفردة بغير أخ ومشوهة الخلقة وكان لها رأسان وفى كل يد عشرة أصابع[٢٥] وكان طول كل أصبع من أصابعها ثلاثة أذرع فى ذراعين ، ولكل إصبع ظفران حادان كالمناجل ، وكان موضع مقعدها خربة من الأرض ، ولما بغت بعث الله إليها أسوداً كالفيلة ، وذئاباً ونموراً ، فقتلوها وأكلوها وذلك بعد أن ولدت عوجا بستين ، وهى أول من استخدم الشياطين وصرفهم فى وجوه السحر ،

وكان الله قد أنزل على آدم أسماء عظيمة تطيعه الشياطين بها ، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها ، فغافلتها عنق وسرقتها ، واستخدمت بها الشياطين ، وتكلمت بشيء من الكهانة ، فدعا عليها آدم وحواء [٢٦].

وهذه الخرافات والأساطير قد فند بعضها بعض المفسرين والمحدثين مثل ابن كثير وابن قتيبة الدينوري فقد ذكر في تفنيد هذه الأعاجيب قولهم: كيف ينقذ الله سبحانه وتعالي عوجا من الطوفان على كفره وفجره؟ وكيف يسوغ أن يهلك الله ولد نوح وأبوه نبي الأمة وزعيم أهل الإيمان، ولا يهلك عوج بن عنق وهو على ما ذكروا أظلم وأطغى ، وقد قال الله تعالى على لسان نوح « ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » وأيضا قوله تعالى : « ثم أغرقنا الآخرين » وذلك بعد نجاة المؤمنين . كما فنّدوا القول في طول عوج بن عنق فذكروا قول الرسول صلعم في الصحيحين : « إن الله خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن » أي ينقص في الطول ، وهذا يقتضي ألا يوجد من ولد آدم من هو أطول منه[٢٧]. ولا ينبغي أن يحط من شأن الأسطورة أنها تنافي واقعنا « إذ أصبحت من الأعمال التراثية التي بلغ من سلطانها أن وجهت دراسات السيكلوجيين والأنثروبولوجيين الاجتماعيين توجيهات حاسمة وخطيرة . وقد ضموا إليها الخرافات والحكايات الشعبية بهدف وضع نظام يربط بعضها ببعض في جميع أنحاء العالم »[٢٨] فلسنا بحاجة إلى تفنيد هذه الروايات ، وبالنسبة للجاحظ فقد كانت وكما جاء على لسانه في الرسالة من باب الهزل والخرافة والمحال والفساد من وجهة نظره ، ووفق فلسفته وفكره الاعتزالي [٢٩].

وننتقل إلى شخصية أخرى من شخصيات المعمرين التي وردت في الرسالة ، وذلك في سؤال الجاحظ عن ملك نمرود الخاطيء [٣٠]، واسمه

النمرود بن كنعان ، وهو من الملوك الجبابرة ، وقد ذكر في القرآن الكريم في مجادلته لإبراهيم الخليل ، وذلك في قوله تعالى : ألم تر إلى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيى ويميت ، قال : أنا أحى وأميت ، قال إبراهيم : فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين.

وذكر المؤرخون أن ملكه دام أربعمائة سنة ، وكان طاغية وجبار وادعى الربوبية مما دعا إبراهيم عليه السلام أن يناظره وقص قصته كما جاء فى القرآن . وقد ذكر فى كتاب النبوة والأنبياء[٣١] أن هذا الملك الجبار قد ظهر فى زمن عصيب ، كان الناس فيه على حياة الشرك وقمة الضلال فادعى الربوبية ، وكان أحد ملوك الدنيا ، فقد ذكروا أن من ملك الدنيا أربعة ، اثنان مؤمنان، وهما ذو القرنين الذى ذكر فى سورة الكهف وسليمان ابن داود ، واثنان كافران وهما النمرود وبختنصر ، أما غيرهم من الملوك فلم يملكوا من الدنيا إلا بلداً أو بلاداً مثل فرعون .

أما كيفية أدعاء النمرود القدرة على الإحياء والإماتة فإنه لما ناظره إبراهيم ، دعا برجلين ممن حكم عليهما بالإعدام . فضرب عنق أحدهما فمات ، وقال : هذا أمته : وأما الثانى فقد أطلقه وقال : وهذا أحييته[٣٢] .

وقد يرى بعض الباحثين أنه لا ينبغى – ونحن نقرأ الأسطورة أن نسأل أين الحقيقى فيها وأين الوهم ، لأنه لامكان للحقيقة بعدما اختلط الواقع بعوالم مجهولة قوامها الآلهة والمردة والجان والغيلان والممسوخ من الإنس والحيوان ، والمهم فى ذلك عندهم أن الأساطير والخرافات لها شخصيتها ، وحدودها ، ويجب أن تكون رموزها محل تقدير كبير منا ، لا على أساس أنها عبث جنونى ، أو استبدال عالم جميل بعالمنا القبيح ، بل على أساس أنه واقع ولكن دخلته زيادة أو تحريف[٣٣] .

وفى موضع آخر يسأل الجاحظ سؤالا حير المفسرين والمؤرخين حتى يومنا هذا ، ولم يتفقوا بشأنه على إجابة محددة كدأبهم مع معظم الشخصيات التاريخية القديمة وبخاصة تلك التى لها علاقة بالأديان ، يقول:

« وأين وقع ملك ذى القرنين » (٣٤).

وهو من المعمرين ، والاختلاف حول حياته وشخصيته سمح لخيال المؤرخين بأن قال بعضهم إنه ظل يجوب الأرض ألفا وستمائة سنة يدعو أهلها إلى عبادة الله ، كما ادعوا أنه عاش وعمره ثلاثة آلاف سنة ، واقتصدت بعض المصادر وذكرت أن مدة دورانه فى الأرض خمسمائة سنة (٣٥).

إن حنين الشعب إلى الزمن الأسطورى يدفعه إلى أن يشرع الشخصيات الجذابة التى تروقه لسبب أو لآخر من إطارها التاريخى ، ويضعها فى قالب أسطورى بحيث يصبح الحديث الاسطورى هو الأصل ، والواقع صورة ممسوخة له (٣٦). وقد دارت التكهنات حول ثلاث شخصيات قد يكون أحدها هو الملقب بذى القرنين ، وهم : شمر بن عمر بن افريقس والاسكندر المقدونى ، وكورش الأخمينى الفارسى . وكما اختلفت الآراء حول تحديد شخصيته فقد اختلفوا ـ بالضرورة حول الزمن الذى عاش فيه ، فمنهم من أرجعه إلى ما قبل الرسول صلعم بثلاثمائة سنة ، ومنهم من أرجعه إلى أبعد من ذلك حتى وصل به بعضهم إلى ما قبل ذلك التاريخ بألفى سنة أو أكثر كما تحدث المؤرخون عن سبب تلقيبه بذى القرنين ، وهذه الأسباب فى جملتها مما يدخل فى الأساطير ، فمن ذلك قولهم إنه دعا إلى طاعة الله فضرب على قرنه الأيمن فمات ثم بعث ودعا إلى ربه ثانية فضربه على قرنه الأيسر فمات ثم بعث فلقب بذى القرنين . وقيل لقب بذلك لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها ، وقرنها من مطلعها للدلالة

على اتساع ملكه إلى أقصى الغرب ، وأقصى الشرق وجهة الشمال ، ومنهم من رد هذه التسمية إلى رؤيا رآها ذو القرنين رأى أنه دنا من الشمس حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها ، فلما قص رؤياه على قومه لقبوه به وقيلت أسباب أخرى ، منها أنه شاب من قرنيه ، وأيضا لأنه عمر حتى فنى في زمنه قرنان من الزمان ، وقيل لأنه ملك فارس والروم ويجوز أنه لقب بذلك لشجاعته كأنه ينطح أقرانه [٣٧].

وكانت أدلة المفسرين للحديث عن ذي القرنين نقلية ، فقد ذكروا الأحاديث النبوية التي ورد فيها ذكر ذي القرنين وذلك عند تفسيرهم لسورة الكهف وقول الله سبحانه وتعالى عنه : « إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا » ، واختلفوا في معنى التمكين له في الأرض ، أكان من نبوة أم من ملك ؟ وقيل هو ملك أهبطه الله تعالى إلى الأرض ، واستدلوا على ذلك بقولهم إن عمر بن الخطاب سمع رجلا ينادي يمنى ياذا القرنين ، فقال له عمر: ما أنتم قد تسميتم بأسماء الأنبياء فما لكم وأسماء الملائكة.

وقد ذكر الجاحظ أن الملك من الملائكة كان إذا عصى ربه في السماء أهبطه إلى الأرض في صورة رجل وفي طبيعته كما فعل مع هاروت وماروت وكذلك الشأن مع ذي القرنين ، فقد كان أبوه ويسمى «عبرى» من الملائكة ، وأمه « قبرى » آدمية [٣٨]. وقيل كان نبيا مبعوثا فتح الله على يديه الأرض ، واحتج من قال بنبوته بقوله تعالى . « إنا مكنا له في الأرض » وحمل التمكين في الدنيا ، والتمكين الكامل في الدين على أنه النبوة وقال بعض المفسرين : يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ، ويحتمل أيضا أن يكون المراد التمكين بسبب الملك من حيث إنه ملك مشارق الأرض ومغاربها والأول عندهم أولى لأن التمكين بسبب النبوة أعلى من التمكين بسبب الملك .

كما استدلوا بقوله تعالى : « وآتيناه من كل شيء سبباً » أن الله تعالى أعطاه من النبوة سبباً ، فأصحاب الرأى القائل بنبوته يقولون : إن هذه الآية تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق التى يتوصل بها إلى تحصيل النبوة . والذين أنكروا كونه نبيا قالوا فى تفسير الآية السابقة : المراد وآتيناه من كل شيء يحتاج إليه فى إصلاح ملكه سببا . وهؤلاء الذين ينكرون نبوته يضعفون أدلة الفريق الأول التى ترى أن الله لا يكلم إلا نبيا فى قوله تعالى : « ياذا القرنين إما أن تعذب ... » وأنه كان مأمورا بالقتال كما أمر الرسول صلعم بالقتال .

وفى تفسير روح المعانى أن عليا بن أبى طالب سئل عن ذى القرنين أنبيا كان أم ملكا فقال : لم يكن نبيا ولا ملكا ولكن كان عبدا صالحا ، أحب الله تعالى فأحبه ونصح لله تعالى فنصحه ، وفى رواية أخرى أن عليا قال : كان ذو القرنين ملكا صالحا رضى الله عمله وأثنى عليه فى كتابه وكان منصوراً (٣٩) .

وقد أشارت أكثر التفاسير إلى أن ذا القرنين هو الاسكندر ابن فيليش.. بن يونان ، وزعم بعض القدماء أن الاسكندر هو أخو دارا بن دارا الأكبر بهمن بن اسفنديار ، وكانت هلانة أم الاسكندر بنت ملك الروم . ويقصون فى سبب تسميته بالاسكندر قصة غريبة ، مفادها أن أم الاسكندر كانت لها رائحة خبيثة فعولجت بمياه شجرة يقال له سندرس ، ولما ولدت غلاما سمته باسم أبيه واسم الشجرة التى تداوت بها فأصبح « اسكندروس » ثم خفف الاسم وصار اسكندر وكنى بذى القرنين (٤٠) .

كما ذكر الهاشمى فى المحبر أن ذا القرنين من ملوك الحيرة وأنه الذى ذكر فى القرآن واسمه الصعب بن ذرين وقال إنه هو الذى عناه لبيد فى قوله:

الصعب ذو القرنين أصبح ثاويا : بالحنو فى جدث أميم مقيم [٤١]

وفى خبر أسطورى يذكر القزوينى أن ذا القرنين سار إلى ناحية يأجوج ومأجوج فاجتمع إليه خلق كثير ، طلبوا منه أن يبنى لهم سدا يحميهم ممن يغيرون عليهم ، فيخربون ديارهم ، ويأكلون ثمارهم ، ووصفوا هؤلاء الخلق بأنهم قصار ضلع ، عراض الوجوه ، وأنهم أصناف شتى وأمم كثيرة لايحصيهم إلا الله ، فطلب منهم أن يجهزوا له الآلات والرجال ، وبنى لهم الفج الذى كانوا يدخلون منه ، بأن آذاب الحديد والنحاس ، وسواه مع جانبى الجبل فصار كالمصمت ، وجعل حشوه الصخور ، وطينه النحاس المذاب ، صب عليه فصار عرقا من جبل تحت الأرض ، ثم علاه بزبد الحديد والنحاس المذابين فصار كأنه برد محبر من صفرة النحاس وسواد الحديد [٤٢] .

كما ذكرت كتب التفاسير والتاريخ أخبارا كثيرة مضطربة حول علاقة ذى القرنين بالخضر عليه السلام ، فقد جعلوه وزيره وابن خالته ، وأن ذا القرنين جعل يسير فى الأرض طالبا الظفر بالشرب من ماء عين الحياة التى تخلد من يشرب منها فظفر الخضر بها ، وشرب منها ، ولم يظفر بها ذو القرنين ولذلك اعتراه الموت ، ولم يمت الخضر إلا بالنفخة الأولى على زعمهم .

وقد لعب الخضر دورا كبيراً فى حياة بعض الشخصيات التاريخية التى نسج حولها القصص الأسطورى بخلاف علاقته بذى القرنين . ففى رواية لوهب بن منبه أن ذا القرنين رأى فى مطلع حياته رؤيا غريبه على مدى أربع ليال على التوالى ، وعندما سعى إلى تفسيرها دله أحد الحكماء من قومه على نبى بيت المقدس من ولد اسحق بن ابراهيم الخليل ، وعندما لقيه سأله: أنبى أنت ؟ وتشير الرواية إلى أن هذا النبى هو موسى الخضر ـ إشارة إلى

علاقة الخضر بموسى عليهما السلام كما وردت في القرآن ـ أى أنه هو العبد الصالح الذى لقيه موسى عند مجمع البحرين ، فقصّ عليه ذو القرنين رؤياه فأخبره بأنه مقبل على مغامرات وفتوحات ، وأنه سيصحبه فيها ، وتستمر الرواية فى سرد خبر شرب الخضر من ماء عين الحياة ، وحرمان ذى القرنين منه ، فقد اقترب من صخرة كان ذو القرنين كلما حاول الصعود إليها اضطربت من تحته ، واستجابت للخضر واستكانت فصعد إليها، وظل يرقى إلى السماء إلى أن سمع مناديا يناديه أن اشرب من عين الحياة وتطهر فسوف تبقى إلى أن ينفخ فى الصور ، ويموت أهل السماوات والأرض ، فتذوق الموت عندئذ حتما مقضيا ، ولما عاد الخضر أخبر ذا القرنين بما حدث وأن له مدة يبلغها ويموت ليس بعدها مزيد لإنس ولا جن [٤٣].

ولقد نفى صاحب تفسير روح المعانى أن يكون ذو القرنين هو الأسكندر ، كما ذكر الأدلة العقلية على موت الخضر عليه السلام وناقش الأدلة التى تؤكد خلوده وفنّد هذه الآراء جميعا من وجهة نظر المفسرين وأهل السنة بصفة خاصة [٤٤].

وهناك رأى انتصر له بعض الباحثين المعاصرين يرون فيه أن المقصود بذى القرنين هو كورش الاخميني الفارسى[٤٥]، على الرغم من أن الرواية المصاحبة لموت ذى القرنين هى نفسها المصاحبة لموت الاسكندر ، فقد ذكروا أن ذا القرنين لما حضرته الوفاة أوصى أمه إذا مات أن تصنع طعاما ، وتجمع نساء المدينة وتضعه بين أيديهن ، وتأذن لهن فيه إلا من كانت ثكلى فلا تأكل منه شيئا فلما فعلت ذلك لم تضع واحدة منهن يدها فيه ، فقالت لهن : سبحان الله كلكن ثكلى ؟ فقلن : أى والله ، فكان ذلك تسلية لها[٤٦] وقد نسب إلى ذى القرنين بناء مدن كثيرة ، فذكروا أنه هو الذى بنى همدان والدبوسية ، وبرج الحجارة بمعلبك ، وسرنديب بالهند ـ

آنذاك ـ فقد كان محبا للبناء والعمران وكان أيضا يبنى السدود ويصلح بين الناس ، وعلى أى حال فإنه لم يتفق على شخصية ذى القرنين على وجه الدقة ، كما حفلت سيرته بالأسطورة والخرافة شأن كل شخصية قديمة .

أما عن السبب الذى أدى بالراوى الشعبى إلى الربط بين ذى القرنين والخضر فى هذه القصة الطويلة الفريدة فى نسيجها الخيالى ، ولماذا لم يقم بهذا الربط الوثيق بين الخضر وموسى عليهما السلام فإن بعض الباحثين يرى أن السمات الأساسية فى القص الشعبى هى استغلال الحادثة الجزئية (الموتيف) فى أكثر من قصة ، وقد تنقل كلية فى بعض الأحيان من القصة التى ارتبطت بها أصلا إلى غيرها من القصص المؤلف ، وربما كانت أهم حادثة جزئية استرعت نظر القصاص الشعبى فى قصة الخضر وموسى هى خلود الخضر، فلما أراد أن يقابل بين الخلود الذى يحن إليه ، بل ويشعر أنه جزء من تكوين هذا الكون ربط بين الخضر وبين الفناء الذى قدر للإنسان مهما بعد صيته ربط بين الخضر والاسكندر الذى لم يضارعه إنسان فى فتوحاته(٤٧) .

فمن الحديث السابق عن ذى القرنين نرى أن هذه الشخصية قد ارتبطت فى كتب المفسرين والمؤرخين وفى التراث الشعبى بشخصية الخضر، والجاحظ فى رسالته مولع بأن يسوق هذه الأحاديث ، ويطرح تلك الأسئلة التى يختلط فيها الجد بالهزل والحقيقة بالخيال ، والواقع بالوهم ، لتتم له السخرية من خصمه بإيقاعه فى هذا المعترك الصعب ، ولا نظن أن الجاحظ المعتزلى الفكر كان سيناطح رجلا غفلا خاملا عاطل الفكر ، فأحمد بن عبد الوهاب الشيعى كان يحظى بقدر كبير من الذكاء والفطنة والثقافة الموسوعية التى تؤهله بحق لأن يكون خصما للجاحظ. وفيما يتعلق بشخصية الخضر فقد سأل الجاحظ سؤالاً محدداً وهو: « خبرنى عن أرميا أهو الخضر؟» (٤٨) .

يحظى الخضر بحديث أسطورى ممتد حتى يومنا هذا ، ذلك أن بعض المفسرين أدعى أنه ما يزال حيا وأنه يتشكل فى صور مختلفة ، ويظهر للمؤمن والعالم والجاهل [٤٩]، كما قالوا إنه من بنى اسرائيل وبعثه الله عليهم نبيا [٥٠]، وهذا القول مردود عليه عند أكثر المفسرين ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى بعث موسى إلى بنى اسرائيل جميعا ، فكيف يصحب الخضر ليتعلم منه « هل اتبعك على أن تعلمن » [٥١] والخضر من المعمرين ، وكما مر بنا فقد زعم خلوده كثير من الأخباريين والأدباء الذين يدخل أدبهم فى نطاق الأدب الشعبى ، كما أنه موجود حى بين أظهرنا عند الصوفية على اتفاق بينهم ، ونقل عن الثعلبى المفسر أن الخضر نبى معمر محجوب عن أبصار أكثر الرجال ، وقال ابن الصلاح : هو حى اليوم عند جماهير العلماء والعامة معهم فى ذلك [٥٢].

والمقصود بالعلماء هنا هم الصوفية ، لأنهم يعتمدون على علم الباطن، وهم يرون أن الرسل الأحياء بأجسادهم فى هذه الدار أربعة ، وهم : ادريس والياس وعيسى والخضر عليهم السلام [٥٣].

ومن الأساطير التى تذكر بشأن الخضر أنه من طوله خاض فى الماء فلم يحتج إلى الركوب فى سفينة نوح ـ وهذا يشبه ما قيل بالنسبة لعوج بن عنق ـ كما قيل أيضا إن له قدرة الكمون فى الهواء ، كما ذكروا أنه يدور فى البحار يهدى من ضل فيها ، والياس يدور فى الجبال يهدى من ضل فيها ، هذا دأبهما فى النهار والليل ، يجتمعان كل ليلة عند الردم الذى بناه ذو القرنين، وقد ذكر هذا الخبر أى خبر السد فى الحديث عن ذى القرنين.

والقائلون بخلود الخضر يقولون إنه سيموت بعد أن يقاتل الدجال ، ومنهم من يقول إنه سيموت زمان رفع القرآن وقال آخرون سيموت آخر الزمان .

وقال أكثر المفسرين إنه نبى وليس برسول ، وقال بعضهم هو رسول ، وقيل ولى ، أما عن تسميته بالخضر فالأسباب كثيرة منها أنه كان يجلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز من خلفه خضراء ، وفى قول آخر إنه كان إذا صلى اخضر ما حوله ، وربما سمى بالخضر لأنه كان يلبس ثياباً خضراً ، وربما لقب بذلك لحسنه وإشراقه ، فالخضر لقب إذن وليس اسما له ، فاسمه « بليا » أو « ايليا » وقيل « عامر » و « اليسع » لأن علمه وسع ست سماوات وست أرضين ، وقيل اسمه إلياس وكنيته « أبو العباس » .

فنحن حقيقة أمام كم هائل من الأخبار الغريبة والمتناقضة ، فالخضر فى هذه الأخبار ملك من الملائكة ، وهو ابن آدم من صلبه ، وذكروا أن أمه رومية وأباه فارسى وأن إلياس أخوه ، وأنه ابن ملك من الملوك ، بل قالوا إنه ابن فرعون (٥٥) .

ولقد أجهد بعض المفسرين أنفسهم فى تفنيد هذه الخرافات وأكثرها مما لايحتاج إلى تعليق لأنه أصبح من التراث الأسطورى ولا يدرس إلا وفق منهج الأسطورة ورموزها . فقد جسدت الشعوب فكرة الزمن اللامتناهى ، واختلفت وسائلها فى ذلك ، فكما انتشرت فى التراث الغربى فكرة الملك المقدس الذى يجب أن يظل شاباً مليئا بالحيوية وإلا قضى عليه بالموت نجد فى التراث العربى أن فكرة الزمن اللامتناهى تجسدت فى شخصية الخضر عليه السلام (٥٦) كما عرف عن العرب أنهم إذا شاخ أحدهم وخرف وظنوا أنه سيقود قومه إلى عواقب وخيمة أوجبوا عليه الانتحار كما حدث مع أبى براء ملاعب الأسنة (٥٧) .

ولا نريد أن يستهوينا هذا المدخل فنستطرد فى تتبع مثل هذه الأساطير التى تزخر بها الكتب المختلفة (٥٨) .

ويستأنف الجاحظ حديثه سائلاً : « وخبرني عن هرمس أهو أدريس ؟»[٥٩].

ذكر ادريس فى القرآن الكريم : قال تعالى « واذكر فى الكتاب ادريس إنه كان صديقاً نبيا » ، وقيل اسمه أخنوخ ولكن سمى بادريس لكثرة درسه الكتب وصحف آدم وشيث ، وقالوا هو أول من خط بالقلم ، وأول من خاط الثياب ، وأول من استوقد واستعبد وغزا بنى قابيل ، ونظر فى علم الفلك ووضع المكيال والميزان ، وأوتى علم الطب والنجوم وعلم الزيجات بحساب غير حساب الهند ، وسأل ربه فأراه الصور الفلكية العالية ، وهو الذى أخبر بالطوفان فى العالم ، وكانت الأرواح تخاطبه ، وعلم أسماء الصعود والهبوط فصعد وهبط ودار حول الفلك ، وعرف أشكال النجوم ووقف على سير الكواكب ، وما يحدث فى العالم فكتبه على الحجارة والطين ، ورفع على رأس ثلاثمائة سنة من عمره وكان يقال له هرمس[٦٠].

وقصته مع ملك الموت تشير إلى ما أصبحت تزخر به كتب التفاسير من اسرائيليات تسللت إلى عقول العامة وأصبحت تشكل النسيج الشعبى العربى على مر السنين ، فقد ذكر الثعلبى أن ادريس عليه السلام سار يوما فى الشمس فأصابه وهجها وتأذى من ذلك فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يخفف عن الملك الذى يحمل الشمس خمسمائة سنة فى يوم واحد حرّها وثقلها ، فقال الملك : يارب خففت عني حر الشمس فما حال الذى قضيت عليه فيه ، فقال الله تعالى : إن عبدى ادريس قد سألنى التخفيف عنك فاستجبت له ، فسأله الملك أن يجمع بينه وبين ادريس فاستجاب له ، فطلب ادريس من الْمَلَك أن يشفع له عند ملك الموت لكى يؤخر أجله حتى يزداد شكرا وعبادة ، فحمله الملك على جناحه وطار به إلى السماء بعد حوار طريف ، استطاع فيه ادريس أن يقنع الملك بقبول الوساطة ، ولكن

ملك الموت أبدى أسفه لعدم قدرته على قبول هذه الشفاعة ، وأبدى استعداده لتقديم خدمة يقدر عليها وهى أن يعلمه متى يكون أجله ، وبعد أن نظر فى أوراقه أخبر ملك الشمس بأن الإنسان الذى كلمه عنه لا يموت أبداً ، قال وكيف ذلك ؟ قال : إنى لأجده يموت عند مطلع الشمس ، قال : فإنى أتيك وتركته هناك ، فقال : انطلق فوالله ما بقى من أجل ادريس شيء ، فعاد فوجده ميتا (٦١) .

وفى رواية أخرى قيل إن ادريس كان يرفع له كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض جميعا فعجبت منه الملائكة ، واشتاق إليه ملك الموت فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له ، فجاءه فى صورة إنسان ، ولكنه ظل ثلاثة أيام لا يأكل مما جعل ادريس ينكره وسأله عمن يكون فأخبره ، وهنا طلب منه ادريس أن يقبض روحه ، فأوحى إليه الله أن يقبض روحه ثم ردها الله إليه بعد ساعة واحدة ، وكان غرض ادريس أن يذوق غم الموت وكربه ليستعد له ، ومن ثم طلب من ملك الموت أن يرفعه إلى السماء لينظر إليها وإلى الجنة والنار ، ولذلك طلب من ملك الموت أن يسأل مالكا لكى يفتح له أبواب النار ليردها ثم سأله ففتحت له أبواب الجنة فدخلها ، ولما طلب منه ملك الموت أن يعود به إلى مقره رفض ، وتعلق بشجرة فى الجنة ، فبعث الله ملكا حكما بينهما ، ودارت محاورة كان الهدف منها تفسير بعض الآيات القرآنية وتأويلها بما يتناسب مع هذه القصة ، فكان رد ادريس على الملك الذى سأله : مالك لاتخرج كان قوله : لأن الله تعالى قال : كل نفس ذائقة الموت وقد ذقته ، وقال تعالى : وإن منكم إلا واردها وقد وردتها ، وقال تعالى : وما هم عنها بمخرجين فلست أخرج ، وهنا قال الله سبحانه وتعالى : دعه فإنه بإذنى دخل الجنة ، وبأمرى لا يخرج منها ، فهو حى هناك فتارة يعبد الله فى السماء الرابعة ، وتارة يتنعم فى الجنة (٦٢) .

فهذه الأسطورة تشير أيضا إلى علاقة الإنسان الشعبى بالموت ومحاولته التغلب عليه ، وإن كان فى الحقيقة لم يستطع أن يهزم الموت أو أن يؤخره أو يختسفى منه ولو إلى حين ، ولذلك كان ينسب هذه المحاولات إلى شخصيات تاريخية لها فى النفوس مكانة ومهابة ، وشىء من القدسية تقوم بالنيابة عنه هو الإنسان الواقعى الدنيوى الضعيف بمجابهة الموت ومحاولة تضليله وخداعه ، أو مهادنته إن لم يستطع الفرار منه ، وقد رأينا فى الأسطورة السابقة كيف أن ادريس لم يجد فى النهاية سوى الاعتصام بكلام الله وذلك بعد أن احتال على ملك الموت ليطابق الفعل القول ، كما تمثل فى الحوار الذى دار بينهما عندما سأله عن سبب عدم خروجه من الجنة ، وتتدخل الرؤية الإسلامية لإنهاء هذه الأسطورة بالقول إن بقاء ادريس فى الجنة ، وحصوله على الحياة الأبدية حياة النعيم كان بإدارة الله سبحانه وتعالى وبأمر منه لملك الموت : « دعه فإنه بإذنى دخل الجنة وبأمرى لا يخرج منها » وفلسفة الموت ترجع إلى « رفض الإنسان البدائى الاعتقاد فى أن الموت قد قدر للجنس البشرى منذ أن وجد على سطح الأرض ، ولكنه عندما رأى ـ من ناحية أخرى ـ أن الموت حقيقة واقعة حاول تفسير حدوثه من خلال تصورات فلسفية متعددة انعكست بدورها فى حكاياته ، وجوهر هذه الحكايات جميعها يتلخص فى أن الإنسان كان قد منح منحة الخلود فى بادىء الأمر ، ولكنه فقد هذه المنحة إما بسبب غبائه أو بسبب خداع الحيوانات الدنيا له »(٦٣).

ومن هذه الحكايات ما يروى عن القمر الإله الذى عبده الإنسان البدائى لظنه بخلوده ، فطلب الإنسان من القمر أن يمنحه الخلود كذلك ، واستجاب القمر فأرسل السلحفاة برسالة مفادها أن الإنسان لن يموت وسوف يخلد ، ولكن السلحفاة أبطأت كعادتها ، فتعجل القمر وأرسل الأرنب

«السريعة» لإبلاغ الرسالة ، فأخطأت الأرنب فى تبليغ الرسالة إلى الناس إذ أخبرتهم أن القمر رفض لطلبهم الخلود وأنهم سيموتون ، فحزن الناس لذلك وعندما وصلت السلحفاة وأبلغت الرسالة الصحيحة ، غضب الناس على الأرنب التى كانت ما تزال واقفة ، فرموها بحجر شق شفتها ، ولم تكن هناك وسيلة لتغيير القدر فتحتم على الإنسان أن يموت وذلك لوصول الأرنب قبل السلحفاة . وربما تفسر هذه الأساطير وجود بعض القبائل لا تأكل لحم الأرنب لاعتقادها بأنها السبب فى محنة الإنسان المتمثلة فى موته[٦٤].

أما تسمية ادريس بهرمس فقد ذكرت كتب التاريخ والطبقات ثلاث شخصيات تحمل هذا الاسم ، فهرمس الأول الذى يسميه اليونانيون أخنوخ ابن يرد وقيل باريد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث ابن آدم هو ادريس الذى علم بطوفان نوح إما بالوحى أو بالاستدلال على ذلك من أحوال الكواكب ، ويزعمون فى خبر غريب أنه أمر ببناء الأهرام وإيداعها الأموال وصحائف العلوم إشفاقا عليها من الضياع [٦٥].

وهرمس ليس اسما بل هو لقب مثل قيصر وكسرى ، وهرمس الأول هذا هو الذى تسميه الفرس فى سيرها « اللهجد » ومعناه ذو العدل ، وجده كيومرث وهو آدم .

كما ذكروا أن مسكنه كان بصعيد مصر ، وهذا هو الذى أدى بهم إلى القول السابق من أنه أمر ببناء الأهرام ، كما نسب إليه بناء البرابى نسبة إلى الجبل المعروف بالبرابر بأخميم فى صعيد مصر ، وقالوا عنها هى أبنية عجيبة فيها تماثيل وصور ، وزعموا أنه صور فيها جميع الصناعات وصناعها نقشاً ، وصور آلات الصناع ، وأشار إلى صفات العلوم حرصا منه على تخليدها [٦٦].

أما هرمس الثانى فهو من أهل بابل وكان بعد الطوفان وكان بارعا فى الطب والفلسفة ، وعارفا بطبائع الأعداد . وهرمس الثالث سكن مصر بعد الطوفان ، وقيل هو صاحب كتاب الحيوانات ذوات السموم ، وكان أيضا طبيبا وفيلسوفا ، وعالما بطبائع الأدوية السامة ، والحيوانات المؤذية ، وله كلام حسن فى صناعة الكيمياء يتعلق بصناعات كثيرة كالزجاج والخرز وما أشبه ذلك (٦٧).

المعمر من الحيوان والطير

إن طول العمر ـ سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو الطير ـ يغري الخيال بأن يجنح نحو المبالغة التي قد يتعداها إلى الأسطورة والخرافة اعتمادا على عمق الزمن ، وضياع البراهين ، وضعف الاستدلال العقلي وعدم القدرة على ربط الأسباب بالمسببات وأخيرا تراكم التراث العالمي في اللاشعور الجمعي ، هذا التراث الضخم دفع الجاحظ إلى أن يحشد هذا الكم الكبير منه داخل رسالة التربيع والتدوير إظهارا لبراعته في المزج بين الجد والهزل ، وسخرية من أحمد بن عبد الوهاب .

يقول الجاحظ : « لو عرفت عقبان طخفة ونسور السراة وأحناش الرمل وعير العانة وورشان الغابة .. أنك لا تعد عمر نوح عمرا ... لما استطالت بأعمارها ولا فرحت بطول أيامها »[٦٨] .

وفي موضع آخر يقول : « وخبرني عن عنقاء مغرب وما أبوها وما أمها ؟ وهل خلقت وحدها أم ذكر وأنثى ؟ ولم جعلوها عقيما وجعلوها أنثى ؟ ومتى تمهد لذلك الصبي ؟ ومت تظل بجناحها شيعة الإمام ؟ ومتى يلقى في فيها اللجام ؟ ومتى يماع له الكبريت الأحمر ويساق إليه جبل الماس ؟ »[٦٩] .

وفي موضع ثالث يقول مذكرا أحمد بن عبد الوهاب بالعلة التي من أجلها ذكر المعمر من الحيوان ، يقول : « وقد زعموا جعلت فداك أن أكل ما طال عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان ، وفي طول العمر وصحة الأبدان ، كالورشان والضباب وحمر الوحش ، وكلحم النسر لمن أكله ، وكلحم الحية لمن استحله ، فإن كان هذا الأمر حقا وكان هذا العلاج نافعا، وكنت له مستعملا وفيه متقدما ، وتراه رأيا ، وإن كنت عنه غنيا أخذنا منه بنصيب وتعلقنا منه بسبب »[٧٠] .

لقد ضرب العرب الأمثال بمن يطول عمره بأنه عمر عمر النسور وبعض الحيوانات منحت طول العمر ، فبالغ العرب فى ذلك وحاكوا الأساطير حول هذه الحيوانات .

وقد علل لطول الأعمار ونقصانها واختلافها عند الإنسان والحيوان بأن الله لما بدأ الخلق كانت الطبيعة التى جعلها جبلة للأجسام فى تمام الكثرة ونهاية القوة والكمال .

والطبيعة إذا كانت تامة القوة كانت الأعمار أطول والأجسام أقوى لأن الموت يكون بانحلال القوة ، فلما كانت القوة فى تمامها ، كانت الأعمار أطول ، وكان العالم فى أوله تام العمر ، ثم بدأ ينقص بنقصان المادة حتى تكون الطبيعة فى آخرها تناهى النقص فى الأجسام والأعمار ، وهذا الرأى هو أهم ما قيل فى أسباب طول عمر بعض الأناس والحيوان .

والجاحظ يستغل هذه الآراء جميعها ليسخر من ابن عبد الوهاب فهو يقول له إذا كنت لم ترزق طول العمر على الحقيقة فعليك باكتسابه من أكل لحم الحيوانات التى عرفت بطول العمر، وأغلبها مما حرم أكله أو كره.

واختلف العرب حول أعمار هذه الحيوانات وقدراتها وطباعها ولهم فى ذلك قصص شعبى عجيب وتلفيقات غريبة لا يعتد بها إلا فى إطارها الصحيح وهو التراث الشعبى المتعلق بالأسطورة والخرافة .

يشير الجاحظ إلى عير العانة ، وهى الحمر الوحشية ، والعانة هى الجماعة من حمر الوحش .

وعانة أيضا بليدة بين هيت والرقة يطوف بها خليج من الفرات وهى كثيرة الأشجار والثمار والكروم ولها قلعة حصينة ونسب العرب إليها الخمر(٧١) .

وذكرها الأعشى فى خمرياته كثيرا يقول : [٧٢].

تخيرها أخوعانات شهرا ∴ ورجّى أولها عاما فعـــــاما

ويقول أيضا : [٧٣].

كأنّ جَنِيّاً مِنَ الزَنْجَبِيـ ∴ ـلِ خالَطَ فَاهَا وأرياً مشـــورا

وإسْفِنْطِ عانةَ بَعْدَ الرُّقَا ∴ دِ ساقَ الرّصافَ إليها غَدِيـــراً

وقد تنسب الحمر الوحشية إلى هذه البلدة .

وقيل فى عمر الحمار الوحشى إنه يعمر مائتى سنة وأكثر ، واستدلوا على ذلك برواية ذكـرها ابن خلكان فى ترجـمـة يزيد بن زياد ، وهى أن بعض الجند نزلوا على جرود فاصطادوا من حمر الوحش ، وذبحوا واحدا منها وطبخوه الطبيخ المعتاد فلم ينضج لحمه ، فزيد عليه فى الإيقاد يوما كاملا ولم ينضج ، فقام بعض الجند وأخذ رأسه وأخذ يقلبه فرأى على أذنه وسما أسود ، فقرأه فإذا هو « بهرام جور » ، وكان بهرام جور من ملوك الفرس قبل مبعث الرسول صلعم بزمن طويل ، وكان من عادته إذا أخذ الصيد وسمه ثم أطلقه [٧٤] ، فاستدلوا من هذه الرواية على أن هذا الحمار ربما يكون عمره أكثر من مائتى سنة . بل قال بعضهم إن الحمار الوحشى يعمر أكثر من ثمانمائة سنة [٧٥] ، والأخدرية أطولها عمرا وأحسنها شكلاً ، وهى تنسب إلى فحل لكسرى أردشير يسمى أخدر كان قد توحش ، واجتمع بعانات فضرب فيها ، فالمتولد منها يقال له أخدرى .

وقال الجاحظ : أعمار الحمر الوحشية تزيد على أعمار الحمر الأهلية، وقال إنه لا يعرف حمارا أهليا عاش أكثر من حمار أبى سيارة عميلة بن خالد العدوانى وكان حمارا أسود حمل الناس عليه من المزدلفة إلى منى أربعين سنة [٧٦].

وكثير من الكتب كحياة الحيوان للدميرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى نقلت كثيرا من المعتقدات العربية فيما يتعلق بالخواص الطبية للحيوانات والحشرات ، وكذلك تحدثوا عما تعبر عنه رؤية هذه الحيوانات فى الأحلام ، فذكر عن الحمر الوحشية أن النظر إلى أعينها يديم صحة العين ويمنع نزول الماء إليها « بخاصية عجيبة أودعها الله فيها » ، والاكتحال بمرارتها يحد البصر ويزيل ظلمته ، وأكل سمين لحمها ينفع من مرض المفاصل ويزيله ، ولحمها ينفع من النقرس نفعا بينا ، وشحمها إذا طلى به الكلف أزاله ، ومرارتها تنفع من داء الثعلب طلاء ، وينفع من البول فى الفراش أكلاً ومخها يسخن بدهن الزنبق ويدهن به البهق يزول .

وهذه الخواص الطبية تشير إلى أن الفقهاء يحلون أكل الحمر الوحشية، غير أن الإمام الشافعى حرم أكل الوحشى إلا إذا أنس ، ولم يحرم الأهلى إلا إذا توحش (٧٧).

وفى مجال التعبير فإن الحمار الوحشى فى المنام يدل على الزوجة أو الولد من ذى الجفاء والقسوة ، ومن رأى أنه راكب حماراً وحشيا فإنه يدل على معصية ، ومن ركبه وسقط عنه فليحذر من درك يناله من معصية ، ومن شرب من لبن حمارة وحش نال نسكا فى دينه ، ومن حوى شيئا من لحم حمر الوحش أو ملكها نال عزا وغنيمة ومالا ، والحمار الأهلى إذا توحش فى المنام كان شرا أما إذا أنس الوحشى فهو نفع وخير (٧٨).

إذا كان الثور الوحشى يشير فى الأساطير ـ فى مرحلة الديانة الكوكبية ـ إلى القمر الذى جعلوه رمزا يشير إلى الإله ود أوسين أو شهر ، وإذا كان الثور فى أنساب العرب يشير إلى بقايا طوطمية قديمة تتخذ من الثور جدًا فإن الحمار الوحشى لم تكن صورته فى الدين القديم واضحة كما هو حادث بالنسبة للثور (٧٩)، فصورة الثور فى التراث العربى القديم

تقدمه وهو يرعى وحيدا يلجئه نوء الجوزاء إلى أن يلوذ بشجرة الأرطى حتى تنجلي الظلماء ويذر قرن الشمس ، فيسمع نبأة صائد يشلى كلابا فيستعد للنزال ، أما حمار الوحش فقد يرعى وحيدا ، ولكنه غالبا يكون مع أتانه أو أتنه يأتى فى فصل الصيف واردا الماء ينعم بالطبيعة الوارفة من حوله ، وغالبا ما يخطئه الصياد (٨٠) .

ويبدو أن الحمار الوحشى كالثور الوحشى كانت له علاقة بشعائر وطقوس السحر المتعلقة بالصيد فى المرحلة المسماة بالسحر دينية يتضح ذلك من قولهم فى التعبير عن الحمار الوحشى فى الأحلام « من شرب من لبن حمارة وحش نال نسكا فى دينه » .

ويشير الجاحظ إلى أحناش الرمل أى الحيات ، ويقول فى كتابه الحيوان : إن الناس لم يجدوا حية ماتت حتف أنفها ، وإنما تموت بالأمر يعرض لها ، وذلك لقولهم إن فيها شياطين وفيها مسخ ، وان ابليس وسوس إلى آدم وحواء من جوفها (٨١) .

وتعد الأناجيل من أقدم المصادر التى أشارت إلى تسمية الحية بالشيطان كما جاء فى الإصحاح الثانى عشر من أعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه « إنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو ابليس ، والشيطان الذى يضل العالم » (٨٢) .

ووفقا لما يقال فإن ديانة العرب قبل الإسلام كانت تشير إلى أنهم يعدون أنفسهم منحدرين من نسل الآلهة السماوية الشمس زوج الإله القمر، وهذه الديانة كانت منتشرة فى الحضارات القديمة مثل مصر والهند وحضارة ما بين النهرين ممن كانوا يعبدون الأفاعى (٨٣) .

ويشير الجاحظ إلى أن عمر الحية أطول من عمر النسر ، وهى على

طول عمرها لا يوجد فى الحيوان شىء أصبر على الجوع منها لأنها إن كانت شابة فدخلت فى حائط صخر فتتبعوا موضع مدخلها بوتد أو بحجر ثم هدموا هذا الحائط وجدوها هناك منطوية على نفسها وهى حية ، فإن هرمت صغر بدنها وأقنعها النسيم ، ولم تشته الطعام ، ويبلغ بها الجهد من الجوع فلا تأكل إلا الشىء الحى ، ومن غرائبها أنها لا تريد الماء ولا ترده ، ولكنها إذا وجدته لا تستطيع أن تضبط نفسها عنه إذا شمته لما فى طبعها من الشوق إليه ، وربما أدى شغفها بالماء إلى هلاكها من كثرة شربها منه ، وذكر قول الشاعر :

ما بعثَ مِنْ بَعْض أعراضِ اللَّمِمْ ∴ لُمَيْمةُ من جِنْسِ أَعْمَى وأصمْ*
قد عاش حتى هُوَ لاَ يمْشِى بِدَمْ ∴ فكُلما أقْصَدَ مِنْهُ الْجوعُ شَمْ(٨٤)

أما لفظة حية فهى تطلق على الذكر والأنثى وإنما دخلته الهاء لأنه واحد من جنس كبطة ودجاجة ، وذكر ابن خالويه لها مائتى اسم ، ويبدو أن اسمها الذى هو مشتق من الحياة كان سببا من الأسباب التى أدت إلى تلك الأساطير التى تتحدث عن طول أعمارها وأنها لا تموت حتف أنفها .

وأنواع الحيات كثيرة منها الرقشاء (٨٥) ، ويقال لها الرقطاء أيضا وهى التى فيها نقط سود وبيض وهى من أخبث الأفاعى ، ومن أنواعها الأزعر ، ومنها الأزب ذو شعر ، ومنها الشجاع والعربد وهى حية عظيمة تأكل الحيات ، ومنها الأصلة وله وجه إنسان ، ومن الأساطير التى تقال عنه إنه يصير كذلك إذا مرت عليه ألوف السنين ، ومن خواصه أنه يقتل بالنظر إلى الضحية ، ومنها الصل وهى المكللة الرأس وهى تحرق كل ما مرت عليه فلا ينبت زرع بجوار جحرها ، وإذا حاذى مكسنها طائر سقط ، ولا يمر حيوان بقربها إلا هلك ، وتقتل بصفيرها من على بعد سهم ، ويقولون إنه ضربها فارس برمحه فمات هو وفرسه !! ، ومنها ذو الطفيتين والأبتر .

ومن أسمائها من غير ماذكر : العيم والعين والصم والناشر والابن والجان والثعبان والأرنب والأفعى والأفعوان وهو الذكر من الأفاعى .

ويقال للحية أبو البحترى وأبو الربيع وأبو عثمان وأبو العاصى وأبو مذعور وأبو وثاب وأبو يقظان ، وأم طبق وأم عافية وأم عثمان وأم الفتح وأم محبوب وبنات طبق (٨٦) . وذكروا أن الحية تعيش فى المتوسط ألف عام وأنها تغير جلدها مرة كل عام ، وتبيض ثلاثين بيضة على عدد أضلاعها ، وبيضها مستطيل ، وهو كدر وأخضر وأسود وأبيض وأرقط ، وفى بيضه نمش ولمع وفى جوفه شىء كالصديد، ويجتمع النمل على بيضها فيفسد معظمه، وعلى الرغم من خطورتها وقوة تأثير سمها فهم يدعون أن العقرب إذا لدغتها ماتت .

ومن الأساطير التى كثر دورانها عن الحيات والتى مزجت ببعض الحقائق أنها تحب اللبن حبا شديداً ، وأنها إذاقلعت عينها عادت مرة أخرى، وكذلك نابها اذا قلع يعود بعد ثلاثة أيام ، وإذا قطع ذنبها نبت مرة أخرى .

وتشير الدراسات الميثولوجية إلى ما للرقم ثلاثة ومضاعفاته من قدسية لدى العرب ولدى غيرهم من الشعوب ، فهو يشبه الرقم سبعة فى قدسيته ، فترى الحية لها أضلاع ثلاثون ، وبيضها ثلاثون ، ونابها ينبت بعد ثلاثة أيام ، فهذا رمز يشير إلى تلك القداسة ، ويفسر كثيرا من الأساطير التى رويت عن الحية (٨٧) .

وزعموا أنها تهرب من الرجل العريان ، ولعله يكون لهذا الخبر ارتباط بالأسطورة التى تقول إن الحية كانت السبب فى خروج آدم وحواء من الجنة، واكتشافهما ولأول مرة فى التاريخ أنهما عريانان ، وهذا التفسير وفق

منهج يونج الذى يعرف النمط الأصلى بأنه تلك القوى المتدفقة فى اللاشعور الجمعى والتى تدفع الإنسان نحو الحركة لخوض التجارب حتى يصل إلى الكل الكامل فهو إذن عامل غير مرئى يبدأ تأثيره فى لحظة تطور الروح الإنسانى ، وهو أيضا الذى ينظم التحركات النفسية فى شكل صور رمزية ، فالنمط الأصلى يعيش فى محتويات اللاشعور الجمعى، وهى تكمن فى عامل الوراثة ، فهذه المحتويات قديمة وفطرية ، وهى أيضا عالمية ، وهى بذلك تختلف عن محتويات اللاشعور الفردى التى تشكلها الخبرة الفردية التى مرت على الشعور فى وقت ما ثم كبتت لسبب أو لآخر (٨٨).

ويذكر الاخباريون أن الحية تفرح بالنار وتطلبها وتتعجب من أمرها ، وأنها إذا ضربت بسوط مسه عرق الخيل ماتت ، وإذا ذبحت فإنها تبقى أياما قبل أن تموت ، وأنها إذا عميت طلبت الرازيانج الأخضر فتحك به بصرها فتبصر ، وهذا يتعارض مع ما قالوه من قبل من أن عينها إذا قلعت ترجع مرة أخرى (٨٩).

ومن عجيب ما قالوه عن أصل الحيات أنها فى الأصل مائية وتعيش فى البحر بعد أن كانت برية ، وفى البر بعد أن كانت بحرية . وقال الجاحظ إن الحيات ثلاثة أنواع ، نوع لا ينفع للسعته ترياق ولا غيره كالثعبان والأفعى والحية الهندية ، ونوع ينفع للسعته ترياق ، وما كان سواهما لا يقتل إلا من ناحية الفزع الذى يصيب الإنسان من رؤيته (٩٠)، وهو ما يسمى حديثا بالصدمة العصبية .

وهذه الأساطير الكثيرة ارتبطت بالحيات لارتباطها بالاسرائيليات ، فقد ذكروا أن الله سبحانه وتعالى أنزل الحية بسجستان وقيل بأصبهان ، وأهبط ابليس فى جدة وحواء بعرفة وآدم بجبل سرنديب وفيها أثر قدم آدم مغموسة فى الحجر ، ويروون أن ابليس وسوس إلى آدم وحواء من جوفها كما مر سابقا (٩١).

ولقد فسروا قوله تعالى « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » بأن الخطاب لآدم وحواء والحية وإبليس ، ورويت أحاديث كثيرة تؤكد على هذه العداوة، منها ما روى عن عائشة عن النبى صلعم قوله « الحية فاسقة والعقرب فاسقة والفأرة فاسقة والغراب فاسق » وفى حديث آخر عن ابن مسعود أن النبى صلعم قال : « من قتل حية فكأنما قتل رجلا مشركا بالله ، ومن ترك حية مخافة عاقبتها فليس منا » (٩٢).

كما ذكر فى تفسير سورة غافره نقلا عن كعب الأحبار أنه لما خلق الله سبحانه وتعالى العرش اهتز العرش تعاظما ، فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح ، فى كل جناح سبعون ألف ريشة ، فى كل ريشة سبعون ألف وجه ، فى كل وجه سبعون ألف فم ، فى كل فم سبعون ألف لسان يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر وعدد ورق الشجر وعدد الحصى والثرى ، وعدد أيام الدنيا ، وعدد الملائكة أجمعين ، فالتوت الحية على العرش فتواضع عند ذلك(٩٣) .

ولاعتقادهم بأن الحية فيها مسخ ، وأن بها شياطين فقد أنطقوها فى حكايات خرافية ، من ذلك ما روى فى مجلس من مجالس سفيان بن عيينة عن رجل قال إنه لقى حية وكانت تستجير به من عدو يطلبها ، فسألها الرجل : ممن أنت ؟ قالت : من أمة محمد صلعم ، فاطمأن إليها وضع لها رداءه لتختبىء فيه ، ولكنها خافت من أن يراها عدوها وأبت إلا أن تختبىء فى جوفه ، ولما صارحها بخشيته من أن تقتله أقسمت له وعاهدته على ألا تفعل ، وأشهدت الله وملائكته وأنبياءه وحملة عرشه وسكان سماواته على أنها لن تقتله ، ففتح لها فمه فانسابت بداخله ، ثم قابله رجل سأله عن عدوه أى الحية ، فاستغفر ربه وقال : لا أعرف ، وتستمر الرواية فتقول إن الحية أخرجت رأسها من فم الرجل وسألته هل انصرف عدوها فقال لها:

نعم ويمكنك الآن أن تخرجي ، ولكنها رفضت وحنثت في يمينها ، وخيرته بين اثنين فيهما هلاكه ؛ إما أن تفتت كبده ، وإما أن تنفث في فؤاده فتدعه بلا روح ، فذكرها الرجل بوعدها وقسمها ، ولكنها وصفته بالحمق إذ نسي العداوة القديمة بينها وبين أبيه آدم إذ أخرجته من الجنة ، فطلب منها أن تمهله إلى أن يمهد لنفسه موضعا يموت فيه ، ثم رفع الرجل رأسه ضارعا إلى السماء بقوله : « يالطيف الطف بي بلطفك الخفي ، يالطيف يا قدير أسألك بالقدرة التي استويت بها على العرش فلم يعلم العرش أين مستقرك منه ، ياحليم ياعليّ ياعظيم ياحي ياقيوم ياالله إلا ما كفيتني شر هذه الحية » ثم أنه سار في طريقه فقابله رجل طيب الرائحة نقي الثوب ، فسلم عليه وسأله عن حاله ، فشكا إليه من عدوه الذي في جوفه ، فطلب منه أن يفتح فاه ، فوضع له ورقه زيتون خضراء فمضغها وبلعها ، فلم يلبث أن شعر بالمغص ثم رمى بالحية قطعا قطعاً . وفي نهاية القصة نعرف أن هذا الرجل المنقذ ليس إلا ملكا من الملائكة أمره الله سبحانه وتعالى ـ عندما سمع دعاء هذا العبد المظلوم ـ أن ينطلق إلى الجنة فيأخذ هذه الورقة الخضراء ويذهب بها إليه. أما هذا الملك فيسمى المعروف، ومستقره في السماء الرابعة (٩٤).

ومن الروايات السابقة ندرك أن الإنسان الشعبي قد قسم الحية إلى نوعين ؛ نوع ينتمي إلى عالم الجان ومنه المؤمن والكافر ، ونوع ينتمي إلى عالم الشياطين ، فالحية المسبحة حول العرش من الجن المؤمن بعثها الله سبحانه وتعالى لتحد من غرور العرش ، والحية المخادعة التي اختبأت في جوف الرجل المؤمن تنتمي إلى عالم الشياطين بدليل أنها ادعت كذبا أنها من أمة محمد ـ فالجان منهم المسلمون ـ لتصرفه عن معرفة حقيقتها . وقد تكون هذه القصة وضعت على لسان الحيوان لتعليم الإنسان كيف لا يصنع

المعروف فى غير أهله لأنه سيكون وبالا عليه ، وتوجد قصص لها دلالة دينية وبخاصة ما يروى عن السنيين فيما يتعلق بالمحدثين فثمة قصة طريفة تروى عن شاب خراساتى كان يطلب الدليل فى مسألة فقهية ، فاستدل الحاضرون بحديث مروى عن أبى هريرة ، ولكن الشاب قال : أبو هريرة غير مقبول الحديث ، تقول القصة إنه ما أتم كلامه حتى سقطت عليه حيه عظيمة من سقف الجامع فهرب الناس جميعا ، وتبعته دون غيره ، فصاح به الناس : تب تب ، فقال تبت تبت فغابت الحية ولم يبق لها أثر[٩٥] .

ويروى الدميرى قصة أخرى عن الحيات المؤمنات تقول : خرج رجال للصيد ودخلت إحدى الحيات خيمة كبيرهم ، فهَمّ الرجال بقتلها ، ولكن رئيسهم منعهم من ذلك ، وتعرض الرجال بعد ذلك لمحنة الموت عطشاً ، فسمعوا هاتفا يرشدهم إلى عين ماء ، وبعد أن شربوا وأخذوا ما يكفيهم اختفت هذه العين ولبثوا متحيرين من هذا الأمر إلى أن سمعوا الهاتف مرة أخرى يخبرهم أنه الحية التى منعهم رئيسهم من قتلها [٩٦] ، ولذلك كافأتهم على صنعهم للمعروف .

وما يزال حتى يومنا هذا من يتخذ من هذه الأساطير وسيلة للسيطرة على العامة والدهماء وتصويرها على أنها حقائق ومانزال مثل هذه الكتب تؤلف والتى تتحدث عن شجاع القبر الذى يعذب الكفار والعصاة وتاركى الصلاة .

أما الضب فقد قالوا عنه إنه يعيش سبعمائة سنة فصاعداً ، وهو لا يشرب الماء ، ويقال إنه يبول كل أربعين يوماً قطرة ، وأسنانه قطعة واحدة ليست مفرقة ولذلك قالوا عنه إنه لا تسقط له سن من حيث إن أسنانه قطعة واحدة ، وهو فى خلقته يشبه فرخ التمساح الصغير . وذنبه كذنبه ، ويتلون

كالحرباء ، وهناك تشابه فى الخلق بين الضب والورل والحرباء والوزغ ، والضبة تحفر فى الأرض وتضع بيضها ثم تغطيه بالتراب ، وتتعهده طيلة أربعين يوما إلى أن تخرج الصغار ، وهى تبيض فى كل مرة أكثر من سبعين بيضة ، وبيضها يشبه بيض الحمام ، ويحب الضب أن ينظر فى ضوء الشمس لأنها تجلو بصره ، وهو أيضا ـ مثل الحية ـ يصبر على الجوع ، فهو يتغذى على النسيم ، ويعيش ببرد الهواء عندما يتقدم به العمر ، وبينه وبين العقارب مودة إذ أن العقرب تعيش معه فى جحر واحد حتى إذا أراد إنسان أن يصيده لسعته العقرب .

ومن رواياتهم التى أنطقوا فيها الحيوان مايروى من أن أعرابيا صاد ضبا ووضعه فى كمه ، ثم إنه تعرض للنبى صلعم يكذبه فى رسالته ، وقال له : لن أومن بك حتى يؤمن هذا الضب ، ثم طرح الضب على الأرض ، فناداه النبى : ياضب ، فأجابه بلسان عربى مبين فصيح : لبيك وسعديك يارسول رب العالمين ، فقال النبى : من تعبد ؟ قال : الذى فى السماء عرشه وفى الأرض سلطانه وفى البحر سبيله وفى الجنة رحمته وفى النار عذابه . فقال صلعم : فمن أنا ياضب ؟ قال : أنت رسول رب العالمين وخاتم النبيين ، قد أفلح من صدقك وقد خاب من كذبك . وهنا آمن الأعرابى وأسلم (٩٧).

هذا وقد أحل الفقهاء أكل لحم الضب بالإجماع ، واستدلوا على ذلك بأحاديث كثيرة ، منها أن النبى صلعم سئل : أحرام هو ؟ فقال : لا ولكنه لم يكن بأرض قومى فأجدنى أعافه .

وتضرب الأمثال بالضب ، فيقال : هو أضل من ضب لأنه عرف عنه النسيان وعدم الهداية ، ولذلك يحفر جحره عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه إذا خرج لطلب الطعام ، وقالوا أعق من ضب ، وهم يريدون الأنثى

لأنها تأكل أولادها ، ولا يسلم إلا الذى يهرب منها ، وقالوا أحيا من ضب لطول عمره ، وقالوا أجبن من ضب لأنه يؤوى العقرب فى جحره لتدافع عنه ، وقالوا أيضا : أخدع من ضب ، وأعقد من ضب لأن ذنبه فيه إحدى وعشرين عقدة .

أما خواصه الطبية فهم يعتقدون أن من أكل منه لا يعطش زمانا طويلا ، وكعبه تشد على وجه الفرس لا يسبقه شيء من الخيل عند المسابقة، وجلده يجعل منه غلاف للسيف ـ فيشجع صاحبه ، وبعره ينفع من البرص والكلف طلاء ، ومن بياض العين اكتحالاً ، ومن نزول الماء فيها ، وله فوائد طبية أخرى على ما يعتقدون (٩٨) .

وعلى الرغم من الخصائص الطبية المفيدة التى ذكرت عن لحم الضب وشحمه ؛ فإنهم يتشاءمون من رؤيته فى المنام ، الضب فى المنام ـ على ما يعتقدون ـ يعبر عن رجل خداع فى أموال الناس ومال صاحبه ، وقيل هو رجل مجهول النسب ، وقيل رجل ملعون لأنه من الممسوخ ، وقيل يدل على الشبهة فى الكسب ، وقيل من رأى الضب فى المنام فإنه يمرض (٩٩) .

وذكر الجاحظ العنقاء ، وهى طائر خرافى فى أساطير المصريين القدماء يقال إنه لما بلغ خمسمائة سنة من عمره أحرق نفسه ، وبرزت من رماده عنقاء أخرى ، وهو رمز البعث أو الخلود ، وكان موضوعاً محبباً عند الوثنيين والمسيحيين ، وعرفه العرب وعدُّوه فى شعرهم أحد المستحيلات الثلاثة فى المثل المعروف « العنقاء والغول والخل الوفى » (١٠٠) .

كما ذكر قول الشاعر مؤكداً على المعنى السابق :

الجود والغول والعنقاء ثالثة ∴ أسماء أشياء لم توجد ولم تكن

فالإجماع على أن العنقاء أسطورة من الأساطير الغابرة ، والعرب إذا أرادت أن تخبر عن هلاك شيء واليأس منه قالت ، « حلقت به عنقاء مغرب » ولكن هناك فرقة من الشيعة تسمى الشميطية ذكرها الجاحظ في كتاب الحيوان ، يقول إنهم يثبتون وجود العنقاء وأنها ستظل بجناحها شيعة الإمام ، كما ذكروا أنها أنثى وأنها عقيم وأورد الجاحظ قول أبي السرى الشميطي وهو معدان المكفوف المديري :

ياسَمِيَّ النبيِّ ياصادِقَ الوَعْـــ ∴ ـدِ وَجدَّ الصَّبيِّ ذِي الْخَلْخالِ

صاحب التومة التي لم يشنها ∴ بعد حرس مثالب الـــلآل

مهـــدتُه العنقـاء وهي عقيمٌ ∴ ربَّ مهدٍ يكونُ فوق الْهلالِ

يوم تصفى له النعـامة والأحنـا ∴ ش طرًا لشدة الزلـــــزال

وذكر أيضا قول زرارة بن أعين رئيس الشميطية وهو يوضح رأى هذه الفرقة (١٠١).

وأول ما يحيَا نعاجٌ وأكبشٌ ∴ ولو شاء أحْيا ربها وهو مـذنب

ولكنه ســـــاع بأمّ وجدّة ∴ وقال سيكْفيني الشّقيقُ المُغربُ

وآخرُ بُرها ناتِه قَلْبُ يَوْمِكُـم ∴ وإلجامُهُ العُنْقاءَ في العَيْنِ أعْجَبُ

يَصيفُ بشاباطَ ويشْتو بآمِـدٍ ∴ وذلك سِـــرٌ لَوْ عَلِمْناهُ معجبُ

أماعَ لَهُ الكبريت والبحرُ جامدٌ ∴ وملكه الأبـراجَ والشّمسُ تجنبُ

فيومَئِذٍ قامتْ شماطُ بِقـدرِها ∴ وقام عسيبُ القَفْرِ يُثني ويخطبُ

وقامَ صبيٌّ دَرْدَقٌ في قماطِهِ ∴ عَلَيْهِمْ بأصْنافِ اللّسانَيْنِ معربُ(١٠٢)

ومن عجائب المخلوقات ذكر القزويني أن العنقاء تعيش ألفا وسبعمائة سنة ، وتتزاوج إذا أتى عليها خمسمائة سنة . فاذا حان بيضها تألمت بشدة فيأتي الذكر بماء البحر في منقاره ويحقنها به فتخرج البيضة ، والذكر هو الذى يحضن البيض ، أما الأنثى فهى التى تسعى للصيد ، والبيض يفقس بعد مائة وخمس وعشرين سنة ، وعندما يكبر الفرخ فإن كان أنثى فالعنقاء الأم تجمع حطبا كثيرا والذكر يوقد بمنقاره نارا والأم تحرق نفسها ويبقى الفرخ زوجا للذكر الأب ، وان كان الفرخ ذكرا أحرق الأب نفسه وبقى الفرخ زوجا للأنثى الأم » (١٠٣) .

وبيضها كالجبال من ضخامته ، أما عن سبب تسمية هذا الطائر بالعنقاء فقد قالوا لأنه كان في عنقها بياض كالطوق ، أو لطول عنقها(١٠٤) ، وهى أعظم الطيور جسما وأكبرها خلقة ، تخطف الفيل كما تخطف الحدأة الفأر ، أما سبب انقراضها فقد قالوا إن الناس قد تأذوا منها لأنها سلبت عروساً بحليها فدعى عليها حنظلة بن صفوان (١٠٥) ، وقيل بل خالد بن سنان العبسى ، فذهب الله بها إلى بعض جزائر البحر المحيط وراء خط الاستواء لا يصل إليها الناس ، وفيها حيوانات كثيرة كالفيل والكركدن والجاموس والبقر والسباع وجوارح الطير ، وعند طيران عنقاء مغرب (١٠٦) يسمع لأجنحتها دوى كدوى الرعد القاصف ، أو كهجوم السيل أو صوت الأشجار عند هبوب الريح (١٠٧) .

وفى رواية أخرى للمسعودى يربط فيها بين العنقاء وبنى اسرائيل ، وينسب هذا القول إلى النبى صلعم عن ابن عباس أنه قال : إن الله خلق طائراً من أحسن الطير وأعجبه ، وجعل فيه ألواناً مختلفة حسنا، وخلق وجهه على هيئة وجه الإنسان ، وكان فى أجنحته كل لون حسن من الريش ، وله أربعة أجنحة من كل جانب منه ، وخلق له يدين فيهما مخالب ، وله منقار

يشبه منقار العقاب ، وخلق له أنثى وأسماهما العنقاء ، وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أنه خلق هذا الطائر وزوجه ليأنس بهما ، وليكونا مما فضل الله به بنى اسرائيل ، وجعل رزقهما وحش بيت المقدس وظلا يتناسلان ، وبعد دخول بنى اسرائيل فى التيه وموت موسى وهارون وخروجهم بعد ذلك من التيه مع يوشع بن نون تلميذ موسى ووصيه ؛ انتقل هذا الطائر إلى نجد والحجاز فى بلاد قيس عيلان ، ولم يزل هناك يأكل الوحوش ، ويخطف الصبيان إلى أن ظهر نبى من بنى عبس فدعا عليهما فانقطع نسلهما [١٠٨] .

كما ذكروا أن هذا الطائر كان موجودا بصعيد مصر ، وأن له لحية وعلى رأسه وقاية [١٠٩] .

ومازال الفنون الشعبية والخيال الشعبى الخصب يصور العنقاء سواء على البسط أو الجداريات مستوحيا من كل هذه الكتابات والأخبار الأسطورية عنها .

أما ما تعبر عنه العنقاء فقد ذكر الدميرى أن العنقاء فى المنام تعبر عن رجل رقيع مبتدع لا يصحب أحداً ، ومن رأى العنقاء تكلمه فى المنام نال رزقا من قبل الخليفة ، وربما يصير وزيراً ، ومن ركب العنقاء غلب شخصا لا يكون له نظير ، ومن صادها فإنه يتزوج بامرأة جميلة ، وهى أيضا تعبر عن ولد شجاع لمن كانت امرأته حاملا [١١٠] .

إن الدارسين لم يستطيعوا حتى الآن الفصل بين الخرافة والأسطورة ، فقد قال بعضهم إن الأسطورة هى قصة خيالية قوامها الخوارق والأعاجيب التى لم تقع فى التاريخ ولا يقبلها العقل ، والخرافة هى الموضوعة من حديث الليل المستملح ، أى أنهما يتداخلان مع بعضهما فى كثير من

الأ ، إن أرسطو لم يفرق بينهما ، ومنطق الأسطورة لايخضع للعقل
بل اللاعقل واللاوعي واللازمان (١١١) .

ن هناك من العلماء من رأى أن الأسطورة تقوم على أصول
تاريخ رافية صحيحة على الرغم من وجود العناصر اللاعقلية فيها ،
مقرير صر الأسطورة ، أو عصر السحر شبيه بعصر العلم ، فالعلم يؤمن
بوجود دقيق للطبيعة ، والسحر كذلك معنى ذلك أن أساس الأسطورة
أساس ك ى إذ اتسعت لتشمل الآلهة والأبطال والوحوش والحيوانات وكل
مظاهر الـ بيعة الحية والصامتة (١١٢) وهذا الرأى صحيح إلى حد بعيد ،
فالعنقاء يجب أن يكون لها أصل تاريخي وجغرافي حقيقي أضفى عليه
الخيال الشعبي الجامح ظلاله مدفوعا بفكرة الحياة والموت والبحث عن
الخلود .

أما العقاب فهي تسمى مجازا « عنقاء مغرب » لأنها تأتي من
الأماكن البعيدة ، وهي غير العنقاء الأسطورية التي ذكرت من قبل ،
فالعقاب طائر، ذكر كثيرا في أشعار العرب القدامى ، وهو سيد الطيور
وأحزمه وأشده بأساً عندهم ، والنسر عريفها ، وكنية العقاب أبو الأشيم وأبو
الحجاج وأبو حسان وأبو الدهر وأبو الهيثم ، والأنثى تسمى لقوة وكنيتها أم
الحوار وأم الشعور وأم طعبة وأم لوح وأم الهيثم (١١٣) .

والعقاب من الطيور المعمرة ، قال الجاحظ في معرض حديثه عن
الخفاش . « ثم الخفاش بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر حتى
يجوز في ذلك العقاب والورشان إلى النسر ، ويجوز حد الفيلة والأسد وحمير
الوحش إلى أعمار الحيات » (١١٤) .

والعقبان من الطيور المعروفة والمألوفة للعرب ولكنهم على الرغم من
ذلك حاكوا حولها الأساطير الغريبة والتي نسبوها إلى ارسطاطاليس ، من

ذلك أنه قال إن العقاب تصير حدأة والحدأة عقابا يتبادلان فى كل سنة[١١٥].

والعقبان منها السود والخوخية والخدارية والسفع والبيض والشقر ، ومنها ما يعيش فى الجبال ، وما يعيش فى الصحارى وما يأوى الغياض أو حول المدن ، وقال إن العقاب لا تكون إلا أنثى وزوجها طير آخر ، ومن الغرائب قولهم إن الثعلب يسافدها ، وهى تبيض ثلاث بيضات غالبا وتحضنها ثلاثين يوماً ـ ونلاحظ هنا ارتباط العقاب بالرقم المقدس ثلاثة ومضاعفاته كما حدث مع الحية ـ فإذا خرجت أفراخها ألقت واحدا منها لأنه يثقل عليها إطعام الثالثة كما يزعمون ، ولذلك يضرب بها المثل فى العقوق ، فيقال أعق من عقاب ومن الأساطير التى تروى عنه أيضا أنه يجلب حجرا من الهند إلى عشه يشبه نوى التمر هندى وإذا حرك يسمع له صوت فإذا كسر لا يوجد بداخله شىء ، ويزعمون أن العقاب إذا رأى إنسانا يقصد عشه رمى إليه بهذا الحجر لمعرفته بخواصه الطبية ، فهو إذا علق على من بها عسر فى الولادة تضع سريعا ، ومن جعله تحت لسانه فإنه يغلب الخصم ويقى مقضى الحاجة ، فكأن العقاب قد عرفت أن الناس يقصدون عشها من أجل الحصول على هذا الحجر العجيب[١١٦].

والعقاب سريعة الطيران خفيفة الجناح ، يقال إنها من سرعتها تتغدى بالعراق وتتعشى باليمن ، ومن غرائبها أنها إذا هرمت وعميت حملتها الفراخ من مكان إلى مكان على ظهرها ، وتلتمس لها عينا صافية بأرض الهند موجودة على رأس جبل فتغمسها فيها ، ثم تضعها فى شعاع الشمس فيسقط ريشها وينبت لها ريش جديد ، وتذهب ظلمة بصرها ، ثم تغوص فى تلك العين فإذا هى قد عادت شابة كما كانت .

وهنا نلاحظ أيضا ارتباط العقاب بفكرة الخلود المستمدة من الشمس

المعبودة المقدسة ؛ فتكتسب العقاب هنا القدسية ويجب عليها أن تظل شابة، وهى الفكرة نفسها التى أشرنا إليها من قبل بالنسبة للملوك أنصاف الآلهة .

وقيل عن العقاب إنها إذا اشتكت من أكبادها أكلت أكباد الأرانب والثعالب [١١٧] فتبرأ .

وقد يرتبط هذا الخبر بالأسطورة القديمة التى تزعم أن الأرنب كانت السبب فى حرمان الانسان من الخلود ، فيكون أكل أكبادها عقابا لها على ما اقترفته فى ماضيها السحيق ، كما أن الخبر يشير إلى أن الثعلب يساعدها وهى ذات قدسية مطهرة من قبل الشمس فيكون أكل قلوب الثعالب عقاباً لها أيضاً .

كما قالوا إنها تأكل الحيات إلا رؤوسها والطيور إلا قلوبها [١١٨] واستشهدوا بقول امرىء القيس [١١٨أ] :

كأنّ قلوبَ الطيْرِ رَطْباً ويابِساً ∴ لَدىَ وَكْرِهَا العُنّابُ والْحَشَفُ البالي

وللعقاد قصيدة طريفة فى عقاب هرم يصفه فيها بأنه شيخ الطيور يقول [١١٩] :

لِعَيْنَيْكَ يا شَيْخَ الطيورِ مَهابَةٌ ∴ يَفِرّ بُغاثُ الطيْرِ مِنْها ويهزمُ

وما عَجَزَتْ عَنْكَ القَطاةُ وإنّما ∴ لِكُلّ شَبابٍ هَيْبَةٌ حينَ يهرمُ

ومن خواصه الطبية ـ زعموا ـ أن ريشه إذا دخن به البيت ماتت حيّاته ، ومرارته تنفع من الظلمة والماء الذى فى العينين اكتحالا .

وبالنسبة لما يعبر عنه العقاب فى المنام فإنه يدل لمن رآه إذا كان فى حرب على النصر والظفر على الأعداء وذلك لأنه كان يدل على راية النبى صلعم ، ومن ملك عقابا ونسراً نال عزا وسلطانا ونصرة على عدوه ، وعاش

عمرا طويلا ، وإن كان الرائى من أهل الجد والاجتهاد انقطع عن الناس ، وعاش منفرداً لا يأوى إلى أحد ، وإن كان ملكا اصطلح مع الأعداء وأمن شرهم ، وانتفع بما عندهم من سلاح ومال ، ومن رأى عقابا ضربه بمخالبه نالته شدة فى ماله ، وربما دلت رؤية العقاب على رجل صاحب حرب لا يأمنه قريب ولا بعيد ، وإذا شوهد على سطح بيت فهو ملك الموت ومن ركب عقابا فى منامه وكان فقيرا نال خيرا ، وإن كان غنيا أو من أشراف الناس فإنه يموت ـ لأنهم كانوا قديما يصورون الميت من الأغنياء والأمراء على شكل عقاب ، ومن رأت أنها ولدت عقابا أصبح لولدها صلة بالملك حسنة أو سيئة ، وأكل لحم العقاب فى المنام يدل على الحرص[١٢٠].

أحيانا قد تبدو محاولات تفسير الأساطير ضربا من العبث على الرغم من جهود الأنثروبولوجيين الرائعة في هذا المجال فالعقاب لا تراها تأكل فريسة بأكملها ، بل تختار وتنتقى من فرائسها ، فهى تأكل أكباد الأرانب والثعالب انتقاما ، ونحن فى أمثالنا الشعبية الآن نقول لمن انتقم منه شر انتقام « لقد احترق كبده » كما أنها لا تأكل قلوب الطير ولا رؤوس الحيات ، فما معنى ذلك ؟

إن القيم العليا للفرد والمتمثلة فى اللاشعور الجمعى ؛ هذه القيم قد ترتبط بالأساطير برموز غير واضحة تماما على الأقل فيما يتعلق بما هو متاح الآن من كشوف ونقوش وحفريات .

أما النسر فهو طائر معروف ، وسماه العرب عريف الطير ، ويزعمون أنه عندما يصيح يقول : ابن آدم عش ما شئت فإن الموت ملاقيك ، وهم يروون هذا الخبر عن الحسن بن على رضى الله عنه ، كما قالوا فى العقاب إنها عندما تصيح تقول : البعد عن الناس راحة[١٢١].

وعن طول عمره فقد ذكروا أنه أطول الطير أعماراً ، فهو عندهم يعمر ألف سنة ، وربما يشيرون بذلك إلى أنه أطول الطير المعروفة لديهم أعماراً لأنهم ذكروا أن العنقاء تعيش أكثر من ذلك .

وكنية النسر أبو الأبرد وأبو الإصبع وأبو مالك وأبو المنهال وأبو يحى ، والأنثى كنيتها أم قشعم . والنسر ليس بذى مخلب بل هو ذو منسر ، له أظفار حداد كالمخالب ، وهو أشد الطير وأقواها جناحا ، وأسرعها طيراناً ، يقال إنه يطير ما بين المشرق والمغرب فى يوم واحد (١٢٢).

وقد تشابهت الأقوال فيما يتعلق بالعقاب والنسر ، فكما قيل ان العقاب هو سيد الطيور والنسر عريفها فقد قيل أيضا إن النسر هو سيدها وأن جميع الطيور تهابه إذا وقع على جيفة وعليها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها ، وذكروا حديثا للرسول صلعم يرويه على بن أبى طالب يقول : هبط على جبريل فقال : يا محمد إن لكل شىء سيداً ، فسيد البشر آدم ، وسيد ولد آدم أنت ، وسيد الروم صهيب ، وسيد فارس سلمان ، وسيد الحبش بلال ، وسيد الشجر السدر وسيد الطيور النسر ، وسيد الشهور رمضان وسيد الأيام يوم الجمعة وسيد الكلام العربية وسيد العربية القرآن ، وسيد القرآن سورة البقرة (١٢٣).

فالنسور والعقبان تشتركان فى كثير من الصفات منها القوة والسرعة والعيش فى الأماكن المرتفعة وحدة البصر وطول العمر ، وضرب المثل بطول عمر النسر ، فقيل أعمر من نسر ، وقيل أتى الأبد على لبد ، ولبد هذا كان آخر نسور لقمان ، وكان لقمان قد طلب من ربه طول العمر ، فخيره بين أن يعيش عمر سبع بقرات سمر من أظب عفر فى جبل وعر لايمسها القطر، أو عمر سبعة أنسر كلما هلك واحد خلفه آخر ، فاختار النسور ، فكان يأخذ الفرخ حين خروجه من البيضة فيربيه ، ويعيش ثمانين سنة

وبعقبه آخر إلى أن هلك ستة ، فسمى السابع لبدا ومعناه الدهر ، ولما مات لبد مات لقمان [١٢٤].

وذكر الشعراء العرب لبدا فى أشعارهم ، من ذلك قول النابغة الذبيانى[١٢٥].

أَمْستْ خلاءً وأَمْسَى أَهْلُها احْتَمَلُوا
أَخْنَى عَلَيْها الذى أَخْنَى على لُبَدِ

وقول الشاعر فى التعجب من طول عمر معاذ بن مسلم مولى القعقاع بن حكيم[١٢٦].

إنَّ معاذَ بنَ مُسْلِمٍ رَجُلٌ ∴ قَد ضَجَّ مِنْ طولِ عُمْرِهِ الأَبَدُ
قد شابَ رأسُ الزّمانِ واخْتَضَبَ ∴ الدّهْرُ وأثوابُ عُمْرِه جُدُدُ
يانسرَ لُقْمانَ كَمْ تَعيشُ وكَمْ ∴ تلْبَسُ ثَوْبَ الْحياةِ يا لُبَدُ

أما لقمان فقد عرف بلقمان النسور لأنه عمر عمر سبعة نسور ، وهو المذكور فى القرآن الكريم ، ويعرف فى كتب التراث بلقمان الحكيم ، لأنه كان حكيما بعلم الأبدان والأزمان وذكر فى القرآن بهذه الصفة « ولقد آتينا لقمان الحكمة » [١٢٧].

وقال بعض الاخباريين إنه عاش مائة وخمسين سنة ، وبعضهم حسب عمر النسور السبعة وجعلها عمر لقمان ، أى خمسمائة وستين سنة لأن كل نسر عاش ثمانين سنة وبعضهم قدر عمره بثلاثة آلاف وخمسمائة سنة[١٢٨]. وعلى هذا فهو يعد من المعمرين ، ولكنى لم أضمه إلى المعمرين من الإنسان لأن الجاحظ كان يتكلم عن نسر لقمان وليس عن لقمان .

أما الخواص الطبية للنسر ، وكذلك ما يعبر عنه بالنسبة لمن يراه فى

كلامه ، فهو يكاد يكون متطابقا مع ما ذكر عن العقاب مع اختلافات طفيفه (١٢٩).

وأنثى النسر لاتحضن البيض ، ولكنها تبيض فى الأماكن العالية وتقوم الشمس مقام الحضن للبيض ، ولن نترك الحديث عن النسور من غير أن نشير إلى بعض معتقداتهم فيما يتعلق بغرائب الحيوان ، فهم يقولون إن أنثى النسر تبيض من نظر الذكر إليها ، وأن النسر من حدة بصره يرى الجيفة ويشمها من أربعمائة فرسخ ، ولكنه إذا شم الطيب مات لوقته ، كما أنه من أشد الطير حزنا على إلفه ، فإذا فارق أحدهما الآخر مات كمدا (١٣٠).

وما يروى عن الحجر الذى يجلبه العقاب من الهند ويطلبه الناس لخصائصه الطبية فإنهم يروون ذلك عن النسر أيضا ، ولكنهم أضافوا قولا غريبا خاصا بالسبب الذى من أجله يذهب النسر إلى بلاد الهند لإحضار هذا الحجر ، فقيل إن أنثاه إذا حملت ذهب ليحضر لها هذا الحجر ويجعله عليها أو تحتها ليذهب عنها العسر !! (١٣١).

ولقد حرم أكل لحم النسر لاستخبائه وأكله للجيف ، ولذلك سخر الجاحظ من أحمد بن عبد الوهاب فى رسالة التربيع والتدوير حينما طلب منه أن يأكل لحم ما طال عمره من الحيوان والطير (١٣٢).

ويبقى الحديث عن الورشان وهو طائر يتولد من الحمام والفاختة وهو حسن الصوت ومعروف بشدة حنوه على أولاده حتى إنه ليقتل نفسه إذا وجدها فى يد القانص (١٣٣).

ومما يدل على طول عمره قول الجاحظ فى الحيوان : « فقد وجدنا بعض النتاج المركب وبعض الفروع المستخرجة أعظم من الأصل ، ووجدنا الحمام الراعبى * أعظم من الورشان الذى هو أبوه ، ومن الحمامة التى هى أمه ، ولم نجده أخذ من عمر الورشان شيئا ، وخرج صوته من تقدير أصواتهما » (١٣٤).

وفى موضع آخر يؤكد على طول عمر الورشان يقول : « ثم الخفاش بعد ذلك من الحيوان الموصوف بطول العمر حتى يجوز فى ذلك العقاب والورشان إلى النسر ويجوز حد الفيلة والأسد والحمير الوحشية إلى أعمار الحيات » (١٣٥).

ويقول أيضا : « وزعم صاحب المنطق فى كتاب الحيوان أنه قد ظهر فيل عاش أربعمائة سنة ، فالفيل فى هذا الوجه يشارك الضباب والحيات والنسور ، وإذا كان كذلك فهو فوق الورشان وعير العانة » (١٣٦).

والورشان أنواع ؛ منها النوبى وهو أسود ، والحجازى ، ومن غرائب هذا الطير التى تدخل فى باب الأساطير أنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب ، وهذه العبارة أخذها أبو العتاهية من هذه الأسطورة ، ونظم عليها قصيدته فى الزهد (١٣٧).

لِدُوا لِلْمَوتِ وابْنُوا لِلخَرابِ ∴ فَكُلُكُمُ يصيرُ إلى ذَهابِ

ولقد أحل الفقهاء أكله لأنه من الطيبات وقيل عن خواصه الطبية ؛ إذا قطر دمه فى العين التى أصابتها طرفة أو ضربة ، فيحلل دمها المجتمع ، ومن عجيب ما قالوه أيضا إن من داوم على أكل بيضه أورثه العشق وزاد من طاقته الجنسية (١٣٨) ، ويزعمون أن الورشان فى الأحلام يدل على رجل مهين ، ويدل على أخبار ورسل لأنه أخبر نوحا عليه السلام بنقص الماء لما كان فى السفينة ، وقيل أيضا إن الورشان يدل على امرأة صدوق (١٣٩).

وبعد ، فإن الإنسان العربى قد اصطنع لنفسه فلسفة تحميه من المخاوف تمثلت فى هذه الأساطير والتى كانت كلها تشير إلى فكرة الخلود والتغلب على الموت (١٤٠) ، ذلك أن الدين قد لعب دورا مهما فى حياة العرب بدءاً بالديانات البدائية ، ومنها الطوطمية والروحانية ، وأساس الديانة الروحانية هو الخوف من الفناء .

الخلاصة

لقد استهدف هذا البحث تقديم بعض الجوانب الفكرية عند الجاحظ فى رسالة « التربيع والتدوير » فى خلال موضوع « المعمر من الإنسان والحيوان والطير » ، ومحاولة تفسير رموز الأساطير التى ارتبطت بهذا الموضوع ، والجاحظ الأديب العباسى الكبير كان يقف « من بعض اتجاهات عصره موقف العداء والسخرية ، كموقفه من الجهمية والمشبهة ، وأصحاب الظاهر ، والمفسرين والمحدثين ، والذين يروون الأخبار ، ويفسرون بعض آى القرآن بغير علم ولا تعقل » (١٤١).

وكانت رسالة التربيع والتدوير ثمرة حقيقية لتلك الحياة العقلية التى عاشها الجاحظ فى البصرة ، وبلورة لمناخ التنوير الذى كان يعبق به بلاط الواثق ومن قبله الخلفاء العباسيون الذين ساندوا هذا التيار الفكرى وأيدوه كالخليفة المأمون الذى شجع على الترجمة ، والترجمة تعد من أهم روافد التيار العقلى التنويرى ، والذى تصدى للفكر السلفى الذى أصيب بالجمود(١٤٢).

والجاحظ قد سقطت إليه الحضارات القديمة الفذة فى التاريخ كحضارة مصر والهند وما بين النهرين ، وقد تمثلها فى وجدانه واستوعبها عقله الذى ربى فى مدرسة الاعتزال .

وعلى الرغم من أن العصر الذى عاشه الجاحظ لم يكن يدرك تماما الأهمية الحضارية والإنسانية للأسطورة والخرافة فإن الجاحظ بحسه المرهف لم يبعدها ، ولم يتعال عليها ، غاية ما فى الأمر أنه وسمها بالإحالة وفق رؤيته الفكرية التى تمنطق الأشياء ، وكانت غايته هى أن يسخر من أحمد ابن عبد الوهاب من ناحية ، وليدل على سعة علمه ـ أى الجاحظ ـ من ناحية أخرى .

وأسفر البحث عن وجود علاقة جبرية بين طول العمر ـ سواء تعلق العمق الزمنى بالإنسان أو الحيوان ـ والأسطورة .

وتجلت فلسفة الإنسان الشعبى فى الموت فى هذه المفارقات التى ظهرت فى كتب التفاسير والتاريخ وعجائب المخلوقات وأساس هذه الفلسفة أن الشعوب لديها حنين إلى الزمن الأسطورى ، يدفعها إلى أن تنتزع الشخصيات التاريخية الفذة من أطرها الواقعية ، وتضعها فى إطار أسطورى يظل ينمو بفعل الزمن ، ويضاف إليه من الخيال الشعبى الجامح ما يجعل من هذه الشخصية أسطورة ملهمة لكل شعب بما يريده منها ، وما يرجوه ويتطلع إليه ، ولذلك تعيش هذه الشخصيات فى عصور متعددة ، ويضاف إليها كل فعل غريب أو عجيب مما يراه هذا الشعب أو ذاك محققا لطموحاته وأمانيه كالشخصيات التى تناولها البحث ، ومنها شخصية الخضر الذى لعب دوراً كبيراً فى حياة بعض الشخصيات التاريخية التى نسج حولها القصص الأسطورى ، فالشعوب قد اختلفت وسائلها فى تجسيد فكرة الزمن الامتناهى، أى فكرة الخلود ، فلم يكن الإنسان الواقعى الضعيف قادراً على الهروب من الموت ، فنسب هذه القدرة إلى بعض الشخصيات التاريخية القديمة والتى لها فى نفسه ووجدانه مكانة كبيرة . كما نلاحظ فى قصة ادريس الربط بينه وبين الشمس وهى عند المصريين رع ، وتمثل على رأس اوزوريس وبجانبيها ريشتان دليل القدرة على التحليق كما توصل البحث إلى نتيجة مغادها وجود الشخصية الواحدة بعدة أسماء ، لأنها ملك للشعوب ، وكل شعب يوظفها وفقا لتراثه الفكرى ومعتقداته ودينه ولغته وعصره من حيث إن هذه الشخصية أو تلك تعيش فى أكثر من زمان ومكان ونستطيع أن نربط بوضوح بين الخضر الذى هو رمز أسطورى لأوزوريس والذى هو نفسه ادريس وبين ذى القرنين .

أما من وجهة نظر الجاحظ ووفق فلسفته وفكره الاعتزالى فقد أسفر البحث عن أنه إنما طرح هذه الأسئلة على أحمد بن عبد الوهاب ـ وكما جاء على لسانه فى الرسالة من باب الهزل والخرافة والمحال والفساد .

كما أن ابن عبد الوهاب الشيعى المذهب كان يحظى بقدر كبير من الذكاء والفطنة والثقافة الموسوعية التى أهلته لكى يكون خصما للجاحظ ، اتضح ذلك من رده عليه فى « الهوامل والشوامل » للتوحيدى .

ومن نتائج هذا البحث وجود علاقة تداخل بين الأسطورة والخرافة ، فالأسطورة تقوم على أصول تاريخية وجغرافية صحيحة ؛ على الرغم من وجود عناصر غير عقلية فيها ، أما الخرافة فهى الخوارق الموضوعة من حديث الليل المستملح ، فالأسطورة أساسها كونى لأنها تشمل الآلهة والأبطال، وكل مظاهر الطبيعة الحية والصامتة . أما الخرافة فأساسها جزئى.

والأسطورة ترتبط بالقيم العليا للفرد والمتمثلة فى اللاشعور الجمعى ، وقد تبدو رموز هذه الأساطير غير واضحة تماما بسبب عدم وفرة النقوش والحفريات ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمة هذه الأساطير كأنماط أصلية تعيش فى محتويات اللاشعور الجمعى مما يجعلها فطرية وعالمية أيضاً .

هوامش البحث

١ ـ كتاب التربيع والتدوير للجاحظ عنى بنشره وتحقيقه شارل بلا أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بباريس ـ دمشق ١٩٥٥ ـ المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ص ٢ .

٢ ـ السابق ص ٩٧ .

٣ ـ رسائل الجاحظ جمع ونشر حسن السندوبي الطبعة الأولى ١٩٣٣ ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ المطبعة الرحمانية بمصر .

٤ ـ رسائل الجاحظ ج ٣ تحقيق وشرح عبد السلام هارون القسم الأول من الفصول المختارة من كتب الجاحظ للأمام عبد الله بن حسان طبعة أولى ١٩٧٩ .

٥ ـ رسالة التربيع والتدوير للجاحظ فوزي عطوي الشركة اللبنانية للكتاب بيروت ١٩٦٩ .

٦ ـ كان كاتبا لصالح بن الرشيد في عهد الواثق (الأغاني شرح د.يوسف الطويل حـ ١٣ دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص ٣٧٣ .

٧ ـ الهوامل والشوامل تحقيق أحمد أمين والسيد أحمد صقر ١٩٥١ ص ٣٢٠ .

٨ ـ السابق ص ٣٢٢ .

٩ـ الجاحظ حياته وآثاره د. طه الحاجري ـ دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ص ٢٨٠ ـ انظر أيضا سرح العيون لابن نباته المصري القاهرة ـ لنرى كيف تأثر المغرب العربي بهذه الرسالة .

١٠ ـ الأغاني ص ١٣ ص ٣٧٣ وما بعدها .

١١ ـ الأساطير دراسة حضارية مقارنة د. أحمد كمال زكى ١٩٨٢ الطبعة الثانية ـ مؤسسة كليو باترا لطباعة الأوفست ص ٧٣ .

١٢ ـ انظر المرجع السابق ص ٧٦ .

١٣ ـ التربيع ص ٧٥ .

١٤ ـ كتاب أعلام النبوة ـ أبو الحسن على ابن محمد الشافعى الماردى ـ دار الكتب العملية بيروت ـ لبنان ص ٤٥ .

١٥ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، محمد بن أحمد بن إياس دار الفكر ص ٥٣ : ص ٥٥ .

١٦ ـ مروج الذهب ـ المسعودى تحقيق يوسف أسعد داغر ـ الطبعة السادسة ـ دار الأندلس للطباعة والنشر ١٩٨٤ حـ ١ ص ٤٧ .

١٧ ـ راجع الدراسات الشعبية بين النظرية والتطبيق د. نبيلة ابراهيم ـ مكتبة القاهرة الحديثة ص ٢٦٤ : ص ٢٦٦ .

١٨ ـ قصص الأنبياء الموسوم بالعرائس ص ١٩٤ الحاوى من الأخبار نفائس النفائس لأبى اسحق أحمد بن محمد الثعلبى .

١٩ ـ الدراسات الشعبية د. نبيلة ابراهيم ص ٢٦٧ .

٢٠ ـ انظر : المحبر لأبى جعفر بن حبيب الهاشمى البغدادى برواية أبى سعيد السكرى تصحيح د. إيلزة ليختن شتيتر ـ منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت حـ ٢ ص ١٣١ .

انظر أيضا تاريخ الطبرى حـ ١ ص ١٥١ ، ص ١٥٢ ص ١٦٢ ، ص ١٦٣ تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم طبعة ثانية دار المعارف بمصر وصبح الأعشى فى صناعة الانشا لأبى العباس القلقشندى

نسخه مصورة عن الطبعة الأميرية ـ وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر حـ ٢ ص ٣٥٩ .

أنظر أيضا الكامل للمبرد حـ ١ ص ٤٧ ، ص ٥٤ ، ص ٥٦ .

٢١ ـ التربيع ص ٢٦ .

٢٢ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد القزوينى ـ تحقيق فاروق سعد طبعة ٣ ـ ١٩٧٨ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ص ٤٩٤ .

٢٣ ـ انظر أيضا بدائع الزهور ص ٦٢ .

٢٤ ـ راجع قصص الأنبياء الموسوم بالعرائس للثعلبى ص ٢٣٣ و ص ٢٣٤ .

٢٥ ـ المستطرف فى كل فن مستظرف حـ ٢ ص ١٢٨ شهاب الدين الاشبيهى ـ دار الفكر بيروت .

٢٦ ـ السابق ـ انظر أيضا قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٣ ، ص ٣٤ .

٢٧ ـ قصص الأنبياء لأبى الفداء بن كثير ـ المكتبة الثقافية الطبعة الثانية ١٩٨٧ ص ٨٤ ، ص ٨٥ .

انظر أيضا تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ص ١٨٧ .

٢٨ ـ الأساطير د. أحمد كمال زكى ص ١٠٧ .

٢٩ ـ التربيع ص ٩٧ ، ص ١٠١ .

٣٠ ـ السابق ص ٣٢ .

٣١ ـ النبوة والأنبياء لمحمد على الصابونى طبعة ثانية ١٩٨٠ ص ١٧٥ ، ص ١٧٦ .

٣٢ ـ راجع تاريخ ابن خلدون الحضرمى المغربى المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ـ المجلد الثانى ١٩٧٩ مؤسسة جمال للطباعة والنشر ص ٦٩ : ص ٧٢ .

٣٣ ـ الأساطير د. أحمد كمال زكى ص ١٠٩ .

٣٤ ـ التربيع ص ٣٢ .

٣٥ ـ تفسير روح المعانى والسبع المثانى ـ عنى بشرحه وتصحيحه محمود شكرى الألوسى البغدادى ـ إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربى بيروت حـ ١٦ ص ٢٤ وما بعدها .

٣٦ ـ عالم الفكر ـ المجلد السادس ـ العدد الرابع ص ١٠١٩ مقال بعنوان « الإنسان والزمن فى التراث الشعبى » . د. نبيلة إبراهيم .

٣٧ ـ روح المعانى للألوسى حـ ١٦ ص ٢٤ وما بعدها .

٣٨ ـ الحيوان للجاحظ شرح وتحقيق عبد السلام هارون دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٨ حـ ١ ص ١٨٧ ، ص ١٠٨٨ وحـ ٤ ص ٦٩ .

٣٩ ـ روح المعانى حـ ١٦ ص ٣١ وما بعدها .

انظر أيضا : ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح محمد خير رمضان يوسف ـ دار القلم دمشق طبعة أولى ١٩٨٦ .

٤٠ ـ قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٤٩ ، ص ٣٥٠ . راجع أيضا تفسير الطبرى جامع البيان فى تفسير آى القرآن الطبعة ٣ ١٩٦٨ مصطفى البابى الحلبى ـ مصر حـ ١٦ ص ٩٠٨.

انظر أيضا : مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى ١٩٨٤ ج ١ ص٣١٨.

٤١ ـ المحبر ص ٣٦٥ ، ص ٣٦٦ .

٤٢ ـ آثار البلاد للقزوينى ـ دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٠ ص ٥٩٦ ، ص ٥٩٧ .

٤٣ ـ راجع مقالة د. نبيلة ابراهيم ـ عالم الفكر المجلد السادس ص ١٠٢٠ وما بعدها .

٤٤ ـ روح المعانى حـ ١٦ ص ٢٦ وحـ ١٥ ص ٣٢٠ : ص ٣٢٩ .

٤٥ ـ محمد خير رمضان ـ ذو القرنين القائد الفاتح .

٤٦ ـ بدائع الزهور لابن إياس ص ١٧٥ : ص ١٨٩.

انظر أيضا : ذو القرنين القائد الفاتح ـ محمد خير رمضان .

٤٧ ـ عالم الفكر ـ المجلد السادس ص ١٠٢١ ، ص ١٠٢٢ .

٤٨ ـ التربيع ص ٢٦ ، ٢٧ .

٤٩ ـ روح المعانى حـ ١٥ ، ص ٣٢١ .

٥٠ ـ قصص الأنبياء للثعلبى ص ٣٢٢ .

انظر أيضا : نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى حـ ١٤ ص ١٤٩.

٥١ ـ راجع روح المعانى حـ ١٥ ص ٣٣١ .

٥٢ ـ السابق ص ٣٢٢ .

٥٣ ـ الفتوحات المكية ـ محى الدين بن عربى ـ السفر الثانى تحقيق د. عثمان يحيى ـ مراجعة د. ابراهيم مدكور ـ المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بالتعاون مع معهد الدراسات العليا

فى السوربون الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٤٠٠ وما بعدها .

انظر أيضا : روح المعانى حـ ١٥ ص ٣٢٨ .

٥٤ ـ السابق ص ٣٢٥ .

٥٥ ـ السابق ص ٣١٩ .

٥٦ ـ عالم الفكر ـ المجلد السادس ص ١٠١٧ .

٥٧ ـ الصورة الفنية فى الشعر الجاهلى فى ضوء النقد الحديث د. نصرت عبد الرحمن مكتبة الأقصى ـ عمان ١٩٧٦ ص ٣٠ .

٥٨ ـ انظر ـ على سبيل المثال ما يتعلق بالخضر فى عجائب المخلوقات للقزوينى ص ١٢٩ ، ص ١٣٠ .

انظر أيضا : الحيوان للجاحظ حـ ٧ ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥ .

٥٩ ـ التربيع ص ٢٦ .

٦٠ ـ أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران للمسعودى ـ طبعة ٤ دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٠ بيروت ص ١١١ .

٦١ ـ قصص الأنبياء للثعلبى ص ٤٩ .

٦٢ ـ السابق ص ٤٩ ، ص ٥٠ .

٦٣ ـ الدراسات الشعبية د. نبيلة ابراهيم ص ٢٥٨ .

٦٤ ـ السابق ص ٢٥٩ وما بعدها .

٦٥ ـ آثار البلاد ـ القزوينى ص ٢٦٩ .

٦٦ ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لموفق الدين أبى العباس السعدى

الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة تحقيق د. نزار رضا ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ ص ٣١ وما بعدها .

٦٧ ـ السابق .

٦٨ ـ التربيع ص ٢٥ .

٦٩ ـ السابق ص ٣١ .

٧٠ ـ السابق ص ٣٢ ، ص ٣٣ .

٧١ ـ معجم البلدان لياقوت الحموى حـ ٤ ص ٧٢ دار بيروت للطباعة والنشر .

انظر أيضا : آثار البلاد وأخبار العباد ـ القزوينى ص ٤١٨ .

٧٢ ـ ديوان الأعشى شرح وتحقيق د. محمد محمد حسين ـ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ١٩٧٤ ص ٢٤٧ .

٧٣ ـ السابق ص ١٤٣ .

٧٤ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميرى حـ ١ ص ٢٥٤ .

٧٥ ـ السابق .

٧٦ ـ الحيوان للجاحظ حـ ١ ص ١٣٩ .

٧٧ ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ٥٤ .

٧٨ ـ السابق ص ٥٥ و ص ٥٦ .

٧٩ ـ الصورة فى الشعر العربى د. على البطل ص ١٢٣ و ص ١٣٨ .

٨٠ ـ راجع الصورة الفنية د. نصرت عبد الرحمن ص ٧٧ وما بعدها .

٨١ ـ الحيوان للجاحظ حـ ٤ ص ١٥٧ .

٨٢ ـ ابليس ـ عباس محمود العقاد دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة الطبعة الخامسة ص ٩٠ .

٨٣ ـ السابق من ص ٣٨ : ص ٦١ .

* تزعم الأعراب أن الأفاعى صم وكذلك النعام .

٨٤ ـ الحيوان للجاحظ حـ ٤ ص ١١٨ وحـ ٧ ص ١٨٤ .

انظر لسان العرب حـ ٢ دار المعارف تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون ص ١٠٨١ وما بعدها .

٨٥ ـ قال النابغة :

فَبِتُّ كأنّى ساورتنى ضئيلةٌ ∴ من الرقشِ فى أنيابِها السم ناقعُ

يسهد من ليلِ التّمام سليمها ∴ لِحَلْىِ النّساءِ فى يديهِ قعاقعُ

تناذرها الراقونَ عن سوءِ سمها ∴ تطلقه طوراً وطوراً تراجعُ

[ديوان النابغة الذبيانى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف طبعة، ص ٣٣ ، ص ٣٤]

٨٦ ـ حياة الحيوان الكبرى للدميرى حـ ١ ص ٢٧٦ .

٨٧ ـ القصص الشعبى فى السودان د. عز الدين اسماعيل ـ الهيئة المصرية للتأليف ـ القاهرة ١٩٧١ ص ٢٠٢ .

٨٨ ـ راجع الدراسات الشعبية د. نبيلة ابراهيم ص ٢٣٨ : ص ٢٤٠ .

٨٩ ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ٢٧٧ .

٩٠ ـ الحيوان للجاحظ حـ ٤ ص ١٥٧ وما بعدها .

٩١ ـ السابق ص ٢٧٥ حياة الحيوان الكبرى للدميرى حـ ١ .

٩٢ ـ السابق ص ٢٨٢ ومن معتقداتهم أن الحيات التى تعيش داخل العمران فهى لا تقتل قبل إنذارها ثلاثة أيام وفى قول آخر ثلاث مرات فإن عادت تقتل .

٩٣ ـ السابق ص ٢٧٨ .

٩٤ ـ السابق ص ٢٧٩ .

٩٥ ـ السابق ص ٢٨٠ .

٩٦ ـ السابق ص ٣٤٦ حـ ٢ .

٩٧ ـ السابق ص ٧٩ .

٩٨ ـ السابق ص ٨٠ .

٩٩ ـ السابق .

١٠٠ـ الموسوعة العربية الميسرة اشراف شفيق غربال ـ الطبعة ٢ دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ص ١٢٤١ .

١٠١ـ الحديث عن هذه الفرقة وما تشير إليه الأبيات بالتفصيل سيأتى إن شاء الله مع تحقيق الرسالة لأن هذا الحديث يخرجنا عن موضوع البحث .

١٠٢ـ الحيوان للجاحظ ـ طبعة ٣ تحقيق عبد السلام هارون دار الكتاب العربى ـ بيروت ـ لبنان ١٩٦٩ ص ١٢٠ .

١٠٣ـ عجائب المخلوقات للقزوينى تحقيق فاروق سعد ـ دار الآفاق الجديدة ـ طبعة ٣ ص ٤٥٦ .

١٠٤ـ حياة الحيوان الكبرى للدميرى حـ ٢ ص ١٦٢ .

١٠٥ـ قيل هما نبيان كانا فى الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام .

١٠٦ـ وسبب هذه التسمية أنهم قالوا عن العنقاء إنه طائر يكون عند مغرب الشمس .

١٠٧ـ عجائب المخلوقات ص ٤٥٦ .

١٠٨ـ مروج الذهب للمسعودى المجلد الثانى طبعة ٢ ـ دار الفكر ص ٢٢٥ .

١٠٩ـ حياة الحيوان الكبرى للدميرى حـ ٢ ص ٢٦٣ .

١١٠ـ السابق ص ١٦٤ .

١١١ـ الأساطير د. أحمد كمال زكى ص ٧٩ وما بعدها .

١١٢ـ السابق ص ١١٧ ، ص ١١٨ .

١١٣ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ١٢٦ .

١١٤ـ الحيوان للجاحظ حـ ٧ ص ٣٨.

١١٥ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ١٣٤ .

١١٦ـ السابق ص ١٢٧ بتصرف .

١١٧ـ السابق .

١١٨ـ ديوان امرىء القيس تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف طبعة ٤ ١٩٨٤ ص ٣٨ .

١١٩ـ ديوان العقاد مطبعة وحدة الصيانة والأنتاج بأسوان ١٩٦٧ ص ٣٤.

١٢٠ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ١٣٥ .

١٢١ـ المستطرف فى كل فن مستظرف للأبشيهى وبهامشه كتاب ثمرات الأوراق فى المحاضرات لابن حجة الحموى ويليه بالهامش :

أيضا أولا : ذيل للإمام ابن حجة الحموى ، ثانيا : ذيل للعلامة محمد بن ابراهيم الأحدب طبعة ١٣٧٩ هـ حـ ٢ ص ١٦٢ ـ دار الفكر بيروت .

١٢٢ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ١ ص ١٣٥ .

١٢٣ـ السابق حـ ٢ ص ٣٤٩ .

١٢٤ـ السابق ص ١٢٦ ، ص ٣٥١ .

١٢٥ـ ديوان النابغة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ـ دار المعارف طبعة ، ١٩٨٥ ، ص ١٦ .

١٢٦ـ مروج الذهب للمسعودى ح ٢ ، ص ١٦٥ .

١٢٧ـ سورة لقمان ٣١ أية ١٢ .

١٢٨ـ المفصل فى تاريخ العرب قبل الأسلام د. جواد على ـ الجزء الأول طبعة ٢ ١٩٧٦ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ مكتبة النهضة ـ بغداد ص ٣١٤ : ص ٣١٦.

١٢٩ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٣٥٢ .

١٣٠ـ السابق ص ٣٤٩ .

١٣١ـ السابق .

١٣٢ـ التربيع والتدوير ص ٣٢ .

١٣٣ـ المستطرف فى كل فن مستظرف حـ ٢ ص ١٢٦ .

* الراعبى هو ولد الحمام من الورشان .

١٣٤ـ الحيوان للجاحظ حـ ١ ص ١٣٤.

١٣٥ـ السابق حـ ٣ ص ٥٣٢ .

١٣٦ـ السابق حـ ٧ ص ١٨٤ .

١٣٧ـ ديوان أبي العتاهية تحقيق د. شكرى فيصل ـ دار الملاح للطباعة والنشر ـ دمشق ١٩٦٤ ص ٣٣ .

١٣٨ـ حياة الحيوان للدميرى حـ ٢ ص ٣٩٥ .

١٣٩ـ السابق .

١٤٠ـ راجع الدراسات الشعبية د. نبيلة ابراهيم ص ١٠٣ .

١٤١ـ الأدب فى عصر العباسيين منذ قيام الدولة حتى نهاية القرن الثالث . د. محمد زغلول سلام ـ منشأة المعارف بالاسكندرية ١٩٩٣ ص ٢١٣ .

١٤٢ـ السابق ص ١٠٢ وما بعدها .